الفصل الأول

آسيا الصغرى وقيام الحركة الصليبية

- الهجوم السلجوقي على آسيا الصغرى في العصر البيزنطي.
- موقعة مانزيكرت مدخل للحروب الصليبية.

الهجوم السجوقي على آسيا الصغرى في العصر البيزنطي:

كان ظهور الأتراك السلاجقة على مسرح الأحداث في الشرق الأدنى، في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي نقطة تحول كبيرة في تاريخ الدولتين الإسلامية والبيزنطية؛ ذلك لأن السلاجقة وهم حديثوا العهد بالإسلام بعثوا الحياة في الدولة الإسلامية من جديد بعدما لحقت بها مظاهر الضعف والتفكك، ومنحوها القوة والنشاط.

وفي الوقت نفسه عجَّل ظهور الأتراك السلاجقة بانكماش نفوذ الدولة البيزنطية، خاصة بعدما اتضحت مظاهر الضعف في شتى أرجائها، وكانوا بمثابة الضربة القاصمة لظهر هذه الدولة، إذ اغتنموا فرصة ضعفها وتفككها، فتوسعوا على حسابها واستولوا على أراضيها[١]، ذلك أنه حدث خلال العقد الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي أن اتجه الأمير السلجوقي جغري بك Chaghri Beg[٢] على رأس ٣ آلاف فارسٍ من

---

(1)Vryonis, S., "Byzantium: the Social Basis of Decline in The Eleventh Century" in: Idem, Byzantium: its Internal History and Relations with Muslim World, (London 1971), p. 159؛ Cahen, C., "An Introduction to the Frist Crusade" in: Idem, Turcobyzanitina et Oriens Christianus, (London 1974), p. 9.

(٢) يذكر متى الرهاوي أن بداية الهجوم السلجوقي على آسيا الصغرى كان سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م ويؤيده في هذا الرأي الباحث التركي إبراهيم كفسوجلي، في حين يرى بعض الباحثين المحدثين ويأتي على رأسهم فريونس، أن أول ظهور للأتراك السلاجقة كان بين سنتي ٤٠٧هـ/٤٠٨هـ/ ١٠١٦-١٠١٧م، ويؤيده في هذا الرأي تومانوف، ويخالف كاهن هذه الآراء، إذ يرجع هذا الظهور إلى فترة متأخرة وذلك سنة ٤٠٢هـ/١٠٢٩م.

Matthieu D'Edesse, Chronique de Matthieu D'Edesse (962-1136) avac la Continuation de Gregoire le Pretre Jusqu'en 1162, French Trans. Dulaurier, M.E., (Paris 1858), 41؛ Kafesoglu, I., A History of the Seljuks, English Trans. Leiser, G., (U.S.A. 1988) p. 29؛ Vryonis, S., The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and The Process of Islamization from the Eleventh Through the Fifteenth Century, (California 1971), p. 80؛ Toumanoff, C., "The background to Mantzikert" I.C.B.S., (September 1966), p. 425؛ Cahen, C., Per-Ottoman Turkey, English Trans. Williams, J.J., (London 1968), p. 67.

إقليم ما وراء النهر، ووصل إلى أرمينية في شرق آسيا الصغرى، وأغار على منطقة بحيرة وان أو فان Van[١] في إقليم فاسبوراكانVaspuracan [٢]، وسحق جيش الأمير سنخريم الأرميني Senecherim[٣]، وكذلك هزم جيش الملك الأرميني سمباط الثالث Sambat III (١٠٢٠- ١١٤٢م)[٤]، وقتل قائده واساك باهلاوني Wasak Pahlavn، وكان لرماة السهام الأتراك دور كبير في تحقيق ذلك النجاح المؤزر على الأرمن[٥].

ثم واصل جغري بك هجومه شمالًا، ودخل منطقة أيبيريا Iberia[٦]، فانسحبت القوات الأيبيرية من أمامه، فشجعه ذلك على القيام بالعديد من العمليات العسكرية في

---

(١) بحيرة وان أو فان أو آرجيش، نسبة إلى مدينة أرجيش Ardiech التي تقع جنوبها البحيرة- تقع هذه المدينة شرق مدينة خلاط- وتعد من أشهر بحيرات أرمينية.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق/ فريد عبد العزيز الجندي، (بيروت، ١٩٩٠)، ج١، ص٤١٦-١٤٧؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، (باريس ١٨٤٠)، ص٣٩٣. لسترنج، بلدان الخلافة ، ص ٢١٧- ٢١٨.

(٢) فاسبوراكان أو بسفرجان، هي كوره بأرض أران، وأران هذه ولاية كبيرة من ولايات أرمينية.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٤١٦-٤١٧، ٥٠١.

(٣) سنحريم، أخر أمراء أسرة أردزروني في فاسبوراكان.

فايز نجيب إسكندر، أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة (١٠٠٠-١٠٧١م/ ٣٩٢-٤٦٣هـ) من مصنف أريستاكيس اللسيتيقرتي، (الإسكندرية ١٩٨٣)، ص ٢٠٥، حاشية ٤٠٣.

(٤) سمباط الثالث، هو الابن الأكبر للملك كاكيك الأول (٩٨٩- ١٠٢٠م)، الذي يعد عصره من أزهى عصور أرمينية، واعتلى العرش خلفًا لأبيه.

لمزيد من التفاصيل عن سمباط الثالث:

لستارجيان (ك.ل.)، تاريخ الأمة الأرمينية، (الموصل ١٩٥١)، ص ١٩٢-١٩٣؛ عثمان الترك، صفحات من تاريخ الأمة الأرمينية، الأرمن في ماضيهم وحاضرهم منذ أقدم عصور التاريخ حتى منتصف القرن العشرين، (حلب ١٩٦٠)، ص ١٢١-١٢٢؛ مروان المدور، الأرمن عبر التاريخ، (بيروت ١٩٨٢)، ص ٢١٨.

(5)Kaegi, W.E., "The Contribution of Archery to The Turkish Conquest Anatolia" Sp., 39 (1964), p. 102.

(٦) أيبيريا، تقع شمال أرمينية، يحدها من الغرب بحر بنطس (البحر الأسود)، ومن الشرق بحر قزوين، وتؤلف جزءًا من جورجيا الحالية جهة الشرق.

السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية ٣٢٣- ١٠٨١م، (القاهرة ١٩٦٠)، ص ٥١٠.

O.D.B., I, p. 971.

تلك الجهات، ثم عاد إلى بلاد ما وراء النهر بعد هذه الغزوة الناجحة[1]. ويبدو أن هذه الغزوة كانت محاولة استكشافية لآسيا الصغرى تمهيدًا للقيام بحملة عسكرية هناك، أو محاولة لإيجاد أراضي جديدة تصلح لانتقال السلاجقة إليها[2].

كان لنجاح غزوة جغري بك في آسيا الصغرى أهمية كبيرة؛ حيث شجعت السلاجقة على شنِّ هجمات أخرى على الأرمن، خاصة بعدما تأكد لهم ضعف المقاومة الأرمينية في هذه الجهات[3]. وعند ذلك أدرك حاكم فاسبوراكان عجزه عن التصدي لجحافل السلاجقة، فتنازل عن أملاكه سنة (٤١٢هـ/١٠٢١م) للإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني Basil II (٩٧٦-١٠٢٥م)، لتتولى الدولة البيزنطية الدفاع عنها ضد السلاجقة[4].

بيد أن وقوع فاسبوراكان تحت الحكم البيزنطي لم يكن ليحميها من التهديد السلجوقي، ذلك أنها لم تلبث أن وقعت فريسة للهجمات السلجوقية المستمرة، التي عجز البيزنطيون أنفسهم عن التصدى لها، ومما يدل على ذلك العجز ما ذكر الأمير السلجوقي قتلمش –ابن عم طغرلبك– عن إحدى حملاته هناك، بأن: «هذه البلاد

---

(1)Matthieu D'Edesse, Chronique, pp. 41-42؛ Kafesoglu, Seljuks, p. 29.

(2)Kafesoglu, Seljuks, p. 29.

سهيل زكار، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، (دمشق ١٩٧٥)، ص٧٤.

(3)Kafesoglu, Seljuks, p. 29

(4)Cedreenus, Historiarum Compendium, p. 464؛Laurent, J., Byzance et Les Turcs Seldjoucides dans L'Asie Occidentale Jusqu'en 1081, (Paris 1913), p. 17؛ Der Nersessian, S., Armenia and The Byzantine Empire, (Cambridge 1944), pp. 11-12؛ Idem, The Armenians (London 1969) p. 39؛ Toumanoff, Mantzikert, p. 425.

ميخائيل الكبير، تاريخ ميخائيل الكبير، ترجمة/ غريغوريوس صليبا شمعون، (دمشق ١٩٩٦)، ج٣، ص١٠٠.

يرجع البعض هذا التنازل أيضًا إلى ضغط باسيل الثاني على الحاكم الأرميني.

Cahen, Pre-Ottoman Turkey, pp. 67-68.

فايز نجيب أسكندر، غزو الإمبراطورية البيزنطية لأرمينية سنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـ، (الإسكندرية ١٩٨٨)، ص١٦.

يحكمها النساء»، وذلك تحقيرًا لشأن الجنود الذين قاتلهم هناك[١]، حيث قام قتلمش هذا بعدة حملات على منطقة فاسبوراكان[٢]،بل إنه في إحدى حملاته ضد مدينة الموصل، حاول الرجوع إلى بلاد ما وراء النهر عن طريق فاسبوراكان فرفض حاكمها البيزنطي السماح له بعبور أراضيه، واشتبك معه في معركة فاصلة انتهت بانتصار قتلمش وأسر الحاكم البيزنطي، وقد أغرى قتلمش بعد عودته من هذه الحملة طغرلبك بمواصلة الغزو في تلك الجهات الخصبة الغنية[٣].

على أي حال فقد شهدت الفترة التالية زيادة الضغط السلجوقي على آسيا الصغرى، ويبدو أن ما شجع السلاجقة على ذلك ما قام به الأباطرة البيزنطيون من ضم أرمينية للسيادة البيزنطية سنة (٤٣٧هـ/١٠٤٥م)[٤].

فقد عبر ألفريد رامبو Alfred Ramboud عن نتائج هذه السياسة البيزنطية بقوله: «كان استيلاء الإمبراطورية البيزنطية على أرمينية مأساةً حقيقيةً للدولتين؛ حيث

---

(1)Cedrenus, Historiarum Compendium, p. 571.

(٢) يذكر كاهن أن حملات قتلمش هذه كانت قبل غزوة إبراهيم إينال- أخو طغرلبك من أمه- بحوالي عامين، وبما أن تلك الغزوة وقعت سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، فإن هذه الحملات تكون حدثت حوالي سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م.

Cahen, C., La Premiere Penetration Turque en Asie- Mineure (Seconde Moitie Du XIe S.), B. 18 (1946- 1948), p. 16.

(3)Cedrenus, Historiarum Compendium, pp. 570-571؛ Kafesoglu, Seljuks, p.40؛ Finlay, G., History of Greece from Its Conquest by The Romans to the Present Time B.C. 146 to AD 1864, 2, (Oxford 1877), pp. 441-442.

الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ترجمة / محمد أقبال، (بيروت ١٩٨٤)، ص ١٧.

(٤) ترجع عملية الضم هذه إلى عصر باسيل الثاني، فنتيجة الضغط السلجوقي المتزايد على أرمينية من ناحية، وخوف سمباط الثالث من بطش باسيل الثاني نتيجة لمساندته أحد المتمردين ضده، ابرم معه سمباط الثالث معاهدة نصت على أن تؤول أملاكه إلى الدولة البيزنطية بعد وفاته.

لمزيد من التفاصيل عن حروب الدولة البيزنطية للسيطرة على أرمينية بعد وفاة سمباط الثالث:

Der Nersessian, Armenians, p. 11؛ Idem, Armenians, pp. 39-40؛ Toumanoff, Mantzikert, p. 425.

فايز أسكندر، غزو الإمبراطورية، ص ٢٧؛ آميل (بول)، تاريخ أرمينيا، عرض مبسط لتاريخ الشعوب الأرمينية منذ فجر التاريخ حتى اليوم، ترجمة/ شكري علاوي، (بيروت د.ت)، ص٢٩.

فقدت الإمبراطورية حصنها الشرقي المنيع... وقضت عملية الضم على الأسر الأرمينية القوية وعلى كل شئ»[١]، بينما يرى تومانوف Toumanoff أن كارثة مانزيكزت كانت نتيجة طبيعة لضم أرمينية للدولة البيزنطية[٢]، إذ كانت أرمينية بمثابة الحصن المنيع والحائط الذي يحمي ظهر الدولة البيزنطية من العالم الإسلامي، لكن بعد القضاء على استقلالها وتحويلها إلى ولاية بيزنطية، سهل ذلك على السلاجقة اجتياح آسيا الصغرى، خاصة بعد أن عجزت الدولة البيزنطية عن الدفاع عنها[٣].

ذلك أنه بعد هذا الضم بقليل وفي سنة (٤٣٩هـ/ ١٠٤٧- ١٠٤٨م)، أرسل طغرلبك الأمير حسن على رأس جيش يتألف من عشرين ألف فارس لغزو آسيا الصغرى، وعندما وصل الجيش السلجوقي إلى فارسبوراكان أدرك حاكمها البيزنطي عجزه عن التصدي لهذا الجيش، فأرسل إلى جاره حاكم مدينة آني طالبًا النجدة، إلا أن وصول هذه النجدات لم يغير في الأمر شيئًا، إذ أدرك القادة البيزنطيون صعوبة مواجهة هذا الجيش في معركةٍ وجهًا لوجه، فاتفقوا على نصب كمين له حتى يتمكنوا من القضاء عليه، وغادروا المعسكر بما فيه من خيام ودواب وآلات، واختبئوا وراء الجبال حتى يظن السلاجقة عند مجيئهم إلى المعسكر أنهم هربوا، وعندما وصل الأمير حسن ورجاله إلى معسكر الأعداء ولم يجدوا أحدًا، فاعتقدوا أن القوات البيزنطية قد فرت هاربة، فأمر رجاله بالهجوم على المعسكر وجمع الغنائم، وعند ذلك خرج حاكم فاسبوراكان وحلفاؤه، وانقضوا عليهم وتمكنوا من هزيمتهم وقتل الأمير حسن[٤].

بيد أن هذه الهزيمة لم تكن لتثني السلاجقة-المصممين على الغزو- عن هدفهم،

---

(١) نقلاً عن:

فايز أسكندر، غزو الإمبراطورية، ص ٢٧.

(2)Toumanoff, Mantzikert, p. 426.

(3)Der Nersessian, Armenians, p. 40؛ Vasiliev, A.A., History of the Byzantine Empire 324-1453, I, (Madison 1958), p. 300

فايز اسكندر، غزو الإمبراطورية، ص٢٧؛ جان أحمرانيان، من هم الأرمن؟ (القاهرة ١٩٧٨)، ص٢٨.

(4)Cedrenus, Historiarum Compendium, pp. 572-575؛ Bryennios, Les Quatre Livers, p. 485؛ Kafesoglu, Seljuks, p. 40؛ Vryonis, Decline, p. 86, Note 40؛ Cahen, Pre- Ottoman Turkey, p. 68؛ Laurent, Byzance et Les Turcs, p. 22؛ Finlay, Hist. Greece, 2, p. 442.

بل إن طغرلبك قد اتخذها ذريعة لإرسال حملة جديدة لتعويض الخسارة السابقة، والثأر لمقتل الأمير حسن، فخرج إبراهيم إينال على رأس ١٠ آلاف فارسٍ إلى منطقة فاسبوراكان، الأمر الذي أصاب حكام تلك الجهات بالفزع لتواصل الهجمات السلجوقية، وبلغ الرعب من هذه الحملة مبلغه لدرجة أن الإمبراطور البيزنطي قنسطنطين التاسع مونوماخوس Constantine IX Monomachus (١١٤٢-١١٥٥م)[١] نفسه أرسل إلى ليباريتس Liparites–حاكم أيبيريا- يطلب منه نجدة جيرانه الذين انسحبوا من أمام إبراهيم إينال؛ خوفًا من أن يشتبك معهم قبل وصول ليباريتس، فاتجه إبراهيم إلى أرزن Artze، تلك المدينة التجارية الشهيرة[٢]، وضرب عليها الحصار، وبالرغم من شدة مقاومة سكانها، إلا أنه تمكن من اقتحامها بعد معركة استمرت ستة أيام، وقام بتدميرها[٣].

ولم يكتف إبراهيم إينال بما أنزله بهذه المدينة التجارية الغنية من تدمير وتخريب، بل أخذ يدمر ويخرب كل ما في طريقه حتى وصل إلى مدينة أرزورم Erzurum[٤]، ومنها

---

(١) قنسطنطين التاسع مونوماخوس، أحد أعضاء الأرستقراطية المدنية في العاصمة وصل للعرش الأمبراطوري عن طريق زواجه من زوي ابنة الإمبراطور قنسطنطين الثامن، وكان حاكما ضعيفًا ساءت أوضاع الدولة في عهده.

لمزيد من التفاصيل أنظر:

Ostrogorsky, Byz. State, p. 294؛ Hussey, J.M. "The Later Macedonians, the Comneni and The Angeli 1025-1204", C.M.H., 4, 1, (1964), pp. 200-201.

محمد محمد مرسي الشيخ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، (الإسكندرية ٢٠٠٠)، ص ٢٩٦.

(٢) ارزن، مستوطنة تجارية شهيرة بالقرب من من أرزورم وهي من أعمر نواحي أرمينية مزدحمة بالسكان، وكانت مركز جذب لعدد كبير من التجار من جنسيات متعددة.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ١٨٠.

(3) Cedrenus, Historiarum Compendium, pp. 576-578؛ Matthieu D'Edesse, Chronique, pp. 83-84؛ Kafesoglu, Seljuks, p. 40؛ Cahen, C., "The Turkish Invasion: The Selechukids", in: Setton, K.M. & Baldwin, M.W.,(eds), A History of the Crusades, I, (Philadelphia 1955), p. 144.

فايز نجيب إسكندر، أرمينية، ص ٨٨-٨٩.

(٤) أرزورم هي أرزن الروم أو أرض الروم، مدينة عظيمة من مدن أرمينية أطلق عليها العرب أسم قاليقلا والأرمن اسم كرين karin، أما البيزنطيون فقد أطلقوا عليها اسم ثيودوسيوبوليس Theodosiopolis،

إلى مدينة طرابيزون Trebizond[1] على بحر بنطس (البحر الأسود)، ثم التقى بالقوات البيزنطية والأيبيرية في معركة فاصلة، انتهت بهزيمتهم وأسر عدد كبير منهم، كان من بينهم ليباريتس نفسه[2]، واستولى السلاجقة على غنائم طائلة، «حملت على عشرة آلاف عجلة» على حد قول ابن الأثير[3].

كان لغزوة إبراهيم إينال هذه أهمية كبيرة؛ لأن ما حققه من نجاح وما وصل إليه من مناطق في آسيا الصغرى، لم يصل إليها أحدٌ غيره من قبل، مما دفع بعض المؤرخين إلى اعتبار ذلك العام الذي تمت فيه هذه الغزوة بداية الغزو السلجوقي لآسيا الصغرى[4].

ومما ساعد إبراهيم إينال على الوصول إلى تلك الجهات البعيدة من آسيا الصغرى، هو عدم وجود قوات بيزنطية كافية للتصدى للقوات السلجوقية، خاصة بعد أن قام قنسطنطين مونوماخوس بسحب معظم القوات العسكرية البيزنطية، لإخماد الثورة التي اندلعت ضده في أدريانوبل بقيادة ليوتورنيكوس Leo Tornicius[5]. هذا بالإضافة

=

وقيل: إن سبب تسميتها أرزن الروم، أنه بعد تدمير السلاجقة مدينة أرزن هجرها سكانها إلى إحدى المدن القريبة وأطلقوا عليها أسم أرزن الروم أو أرض الروم.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ١٨١؛ ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ١٩٨؛ دائرة المعارف الإسلامية، مج ١، مادة أرزن الروم، ص ٦١٠-٦١٢.

(١) طرابيزون، طرابزنده أو أطرابزندة، تقع في الزاوية الجنوبية لبحر بنطس، وهي مدينة تجارية شهيرة، ومما يدل على شهرتها أن بحر بنطس نسب إليها فكان يعرف ببحر طرابزندة.

أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ٣٩٢-٣٩٣؛ لسترنج، بلدان الخلافة، ص ١٦٨.

دائرة المعارف الإسلامية، مج٢، مادة أطرابزندة، ص ٣٠٣-٣٠٩.

(2)Cedrenus, Hisoriarum compendium, pp. 578-580؛ Cahen, Pre-ottoman Turkey, p. 68.؛ Idem, la premiere penetration, p. 15؛ Laurent, Byzance et les Turcs, p. 22؛ Vryonis, Decline, pp. 86-87.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق / أبي الفداء القاضي، ج٨ (بيروت ١٩٩٨)، ص ٣٨٢-٣٨٣؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٦، تحقيق/ محمد فوزي العنتيل، (القاهرة ١٩٨٥، ص ٣٨٢ – ٣٨٣).

(٤) نقلاً عن:

Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 68؛ Idem, La Premiere Penetration, p. 15.

(٥) ليوتورنيكوس، قائد الفرقة المقدونية في الجيش البيزنطي، أثارته مواقف قنسطنطين مونوماخوس ضد =

إلى مهارة السلاجقة القتالية، خاصة في الرمي بالسهام التي أصابت أعداءهم بالفزع وأنزلت بهم خسائر فادحة[١].

على هذا النحو، عجزت الدولة البيزنطية عن حماية أرمينية من الهجوم السلجوقي-التي كانت قد كافحت زمنًا طويلاً من أجل السيطرة عليها- فقد اجتاحها إبراهيم إينال في غزوته، وظل يغزو ويدمر في آسيا الصغرى إلى «أن بقى بينه وبين القسطنطينية خمسة عشر يومًا»[٢].

ونتيجة لهذه الانتصارات السلجوقية، وعجز قنسطنطين مونوماخوس عن مقاومة السلاجقة، وتعرض الدولة البيزنطية في هذا الوقت لخطر البشناقPechenegs (الباتزيناك- البجناك)-الذين سببوا لها الكثير من المتاعب في ولاياتها الغربية[٣]-اضطر قنسطنطين مونوماخوس إلى اتباع الوسائل الدبلوماسية مع السلاجقة، فأرسل

=

العسكريين، فأعلن الثورة وأتجه إلى القسطنطينية، فأرسل قنسطنطين إلى حاكم أرمينية يطلب إرسال قوات عسكرية للدفاع عن العاصمة، فقام الأخير بتجريد الأقاليم الشرقية من معظم قواتها وأرسلها إليه.

Ostrogorsky, Byz. State, p. 194؛ Husssey, Later Macedonians, p. 203؛ Treadgold, W., A History of the Byzantine State and Society, (U.S.A. 1997) p. 594.

(1)Kaegi, Contribution of Archery, p. 104.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٢٨٣؛ النويري، نهاية الآرب، ج٢٦، ص٢٨٤.

(٣) البشناق، شعب تركي الأصل موطنه الأصلي التركستان الصينية، إلا أنه انتقل بعد ذلك إلى منطقة شمال بحر قزوين نتيجة لهجوم جيرانهم عليهم خاصة الخزر، ثم هجروا هذه المنطقة إلى سهوب شمال بحر بنطس، وتحالفوا مع الدولة البيزنطية لحماية حدودها الشمالية، ولكن نتيجة لضغط جيرانهم اضطرت جموع منهم لعبور الدانوب، وهاجمت الأراضي البيزنطية بهدف السلب والنهب، ولكن منذ عهد قنسطنطين مونوماخوس هدفت هجماتهم إلى الاستيلاء على الأراضي البيزنطية والاستقرار بها.

لمزيد من التفاصيل:

المتولي السيد تميم، البشناق والبيزنطيون، دراسة في سياسة بيزنطة الشمالية (٨٥٠-١١٢٢م)، رسالة ماجستير غير منشورة – كلية الآداب – جامعة المنصورة، ١٩٩٦.

Angold, M., The Byzantine Empire 1025- 1204: A Political History, (London 1984), pp. 14-15.؛ Franzius, E., History of The Byzantine Empire, Mother of Nations, (New York 1967), pp. 275- 276.

جريجورس دروسيس Georgus Droses-أحد كتبة أرون Aaron حاكم فاسبوراكان- إلى طغرلبك طالبًا منه وقف الإغارات السلجوقية وإبرام الصلح، ثم أرسل إليه طالبًا افتداء ليباريتس، فوافق طغرلبك على طلب الصلح، بل وأطلق سراح ليباريتس دون فدية[1]، الأمر الذي يثير تساؤلًا هامًا، وهو **لماذا وافق طغرلبك على هذه الصلح؟ وإلى أي حد تأثر الهجوم السلجوقي على آسيا الصغرى بتوقيعه؟.**

إذا كان كاهن Cahen قد وصف طلب قنسطنطين مونوماخوس للصلح بأنه درجة من درجات الخداع والدهاء التي كانت تقتضيها الضرورة[2]، فإن قبول طغرلبك ذلك الصلح لا يعني أنه أقل دهاءًا من قنسطنطين، أو أنه تخلى عن أهدافه ضد الدولة البيزنطية، وإنما كان يهدف من وراء ذلك القبول تأجيل فتح باب العداء مع الدولة البيزنطية في هذه المرحلة التي انشغل فيها بتنظيم أمور دولته[3].

وربما كان هذا القبول أيضًا تكتيكًا حربيًا من جانبه، لالتقاط الأنفاس بعد سلسلة طويلة من العمليات العسكرية، خاصة وأن الدولة البيزنطية دولة لها ثقلها السياسي والعسكري، ومن ثَمَّ كان على السلاجقة أن يعدُّوا أنفسهم إعدادًا جيدًا قبل فتح باب العداء مع البيزنطيين، ويبدو أيضًا أن طغرلبك قد قبل هذا الصلح رغبةً منه في استغلاله لخدمة أغراضه ضد الفاطميين في مصر، ومما يدل على ذلك أنه بعد توقيع هذا الصلح بفترة قصيرة وتحديدًا سنة (٤٤٣هـ/١٠٥١م) أرسل طغرلبك مبعوثًا من عنده إلى قنسطنطين مونوماخوس يستأذنه في السير إلى مصر عن طريق بلاد الشام ، إلَّا أن الإمبراطور رفض طلبه مظهرًا له المودة التى تربط بينه وبين الخليفة الفاطمي وأنه «لا

---

(1)Cedrenus, Historiarum Compendium, pp. 580-581؛Kafesoglu, Seljuks p. 41؛ Cahen, La Premiere Penetration, p. 16؛ Franzius, Byz. Empire, p. 277.

ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٢٨٩؛النويري، نهاية الأرب، ج٢٨، ص ٢٨٥-٢٨٦.

(2)Cahen, Pre-Ottoman Turkey, pp. 68-69.

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٦٦؛ شاكر مصطفى، "دخول الأتراك الغز إلى الشام في النصف الثاني من القرن الحادي عشر"، مجلة كلية الآداب والتربية- جامعة الكويت- العدد الخامس، (١٩٧٤)، ص٥٦.

يرخص في أذيته»[1].

على أي حالف إن قبول طغرلبك لهذا الصلح لم يؤثر بصورة كبيرة على قوة الإغارات السلجوقية على آسيا الصغرى، فما حققه السلاجقة من نجاح في تلك الجهات، أغرى الكثير من العناصر السلجوقية المغامرة على القيام بالغزو في آسيا الصغرى، ضاربين بهذه الاتفاقيات عرض الحائط، واشتدت إغاراتهم فكانوا «كالذئاب الشرسة»؛ مما دفع قنسطنطين مونوماخوس إلى أن يرسل إلى طغرلبك معترضًا على هذه الأعمال، فما كان من طغرلبك إلا أن رد عليه قائلاً: «إن هذه الهجمات تقوم بها عناصر متمردة لا تخضع لسيطرته»[2].

ومع ذلك فإن طغرلبك نفسه خرج على رأس جيش سنة (٤٦٦هـ/١٠٥٥م)، لغزو آسيا الصغرى مع ابن عمه قتلمش[3]، وقد بدأ عملياته العسكرية بإرسال بعض قواته؛ لنهب المنطقة الواقعة بين بحيرة وان وسهل أرزورم وجنوب طرابيزون، أما هو

---

(١) شاكر مصطفى، دخول الترك الغز، ص ٥٦.

- لم تكن علاقة الود والصداقة بين الدولتين البيزنطية والفاطمية وليدة عهد قنسطنطين مونوماخوس، بل تمتد جذورها إلى عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمي، وإن كانت قد توترت في بعض الأوقات إلا أنها عادت ودية مرة أخرى في عهد قنسطنطين مونوماخوس، ومما يدل على ذلك تلك الرسالة التي بعث بها هذا الإمبراطور إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي يطلب منه فيها قيام تحالف بين الجانبين البيزنطي والفاطمي ضد السلاجقة، وأيضا موافقته على إرسال الغلال والأقوات إلى مصر لمساعدتها في مواجهة المجاعة التي وقعت بها في ذلك الوقت.

لمزيد من التفاصيل عن العلاقات بين الجانبين:

أسمت غنيم، العلاقات السياسية بين الدولتين البيزنطية والفاطمية، ٩٦٩-١٠٩٤م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٦٨، ص ٢٩٧-٢٩٨؛ عبد الرحمن محمد عبد الغني، موقف البيزنطيين والفاطميين من ظهور الأتراك السلاجقة بمنطقة الشرق الأدنى الإسلامي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حوليات كلية الآداب- جامعة الكويت- الحولية الخامسة عشر، (١٩٩٤-١٩٩٥)، ص ٤١.

(2)Attaliatae, Historia, p. 46.

(٣) يبدو أن ما دفع طغرلبك إلى القيام بهذا الهجوم رغم الصلح المعقود بين الطرفين هو رفض قنسطنطين مونوماخوس للمرة الثانية التحالف مع السلاجقة ضد الفاطميين بل ولم يكتف بهذا الرفض بل أرسل تفاصيل الرسالة السلجوقية للفاطميين.

شاكر مصطفى، دخول الترك، ص ٥٦-٥٧.

فاتجه إلى مدينة بركري Berkri[1]، وبعد الاستيلاء عليها اتجه إلى مدينة آرجيش، واستولى عليها، ومنها أسرع إلى مدينة مانزيكرت وحاصرها أكثر من ثلاثين يومًا، دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها؛ وذلك بسبب صمود سكانها في وجه هذا الحصار، بما لديهم من مخزون المؤن وأعلاف الماشية، فتركها طغرلبك مؤقتًا واتجه إلى مدينة أرزورم ونهبها، ثم عاد إلى مانزيكرت وشدد عليها الحصار، إلا أنه لم يلبث أن رحل عنها وعاد إلى قاعدة إنطلاقه في بلاد ما وراء النهر[2].

هكذا شهد عهد قنسطنطين مونوماخوس زيادة توغُّل السلاجقة في آسيا الصغرى، وعجزه عن مقاومتهم واضطراره إلى مهادنتهم، الأمر الذي أدَّى إلى زيادة جرأتهم في الهجوم على أراضيه، وقد عبَّر المؤرخ أرستاكيس اللسيتيقرتي عن نتائج هذا العجز بعبارته البالغة الدلالة حيث قال: «لهذا انقضَّ الأعداء كالذئاب الجائعة التي تلتهم بلا رحمة القطيع الذي بلا راعٍ يحرسه»[3].

وبالرغم من أن الإمبراطورة ثيودورا Theodora (١٠٥٥-١٠٥٩)[4] -التي تولت العرش بعد قنسطنطين مونوماخوس- قد دخلت في مفاوضات مع طغرلبك

---

(١) بركري، باركري أو بهركري، مدينة مشهورة تقع شرق مدينة آرجيش.
لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٢١٨.

(2)Cedrenus, Historiarum Compendium, pp. 590-591؛ Attaliatae, Historia, p.46؛ Matthieu D'Edesse, Chronique, pp. 98-102؛ Kafesoglu, Seljuks, p. 42.؛ Cahen, La Premiere Penetration, pp. 16-17.

- يبدو أن ما دفع طغرلبك في ذلك هو حلول فصل الشتاء، ونفاذ المؤن وإمدادات الجيش السلجوقي المحاصر للمدينة، فضلا عن قيام حاميتها بحرق آلات ومنجنيقات السلاجقة.
Attaliatae, Historia, p. 46-47؛ Kafesoglu, Seljuks, p. 42.

ابن الاثير، الكامل، ج٨، ص ٣١٦؛النويري، نهاية الأرب، ج٢٦، ص٢٨٨؛ عثمان الترك، صفحات، ص ٢٧-٢٨.

(٣) نقلاً عن: فايز اسكندر، أرمينية، ص ٩٦.

(٤) ثيودورا، آخر أباطرة البيت المقدوني، أنتقلت إليها مقاليد الأمور بعد وفاة قنسطنطين مونوماخوس، ولم تأل جهدا خلال فترة حكمها القصيرة في إصلاح أوضاع الدولة الاقتصادية، وارتكزت سياستها الخارجية على إقرار السلام.
Ostrogorsky, Byz. State, p. 298؛ Hussey, Later Macedonians, p. 204؛ Treadgold, Byz. State, p. 597.

وحاولت إقامة علاقات سلمية معه[١]، إلا أن الهجمات السلجوقية على آسيا الصغرى لم تتوقف في الفترة التالية؛ حيث هيأَّت الظروف على الجانبين البيزنطي والسلجوقي المناخ المناسب لمواصلة التوغل السلجوقي في هذا الإقليم، فعلى الجانب البيزنطي فإن الثورة التي قامت ضد الإمبراطور ميخائيل السادس Michael VI (١٠٥٦-١٠٥٧)[٢]، بقيادة إسحاق كومنين Isaac Komnenos (١٠٥٧-١٠٥٩) [٣]، عادت بالعواقب الوخيمة على الدولة البيزنطية، وأدت إلى مزيد من التوغل السلجوقي في آسيا الصغرى، إذ اتجهت معظم القوات العسكرية المدافعة عن أرمينية إلى القسطنطينية؛ لمساندة إسحاق في ثورته، وبذلك تركت الحدود الشرقية دون حماية، فانتهز السلاجقة هذه الفرصة وضاعفوا من هجماتهم، حيث قاد الزعيم التركماني ساموك Samuk حملة تتكون من ثلاثة آلاف فارس، وهاجم شرق آسيا الصغرى، وانضم إليه جماعة من المرتزقة بقيادة هيرف Herve[٤]، وأغاروا على مدينة خلاط[٥].

---

(١) فايز إسكندر، أرمينية، ص ٩٦.

(٢) ميخائيل السادس، كان متقدمًا في السن ضعيف الإرادة، خضع لسيطرة البيروقراطيين وعجز عن إدارة شئون الدولة البيزنطية، فاستغل السلاجقة هذه الفرصة وكثفوا هجماتهم على آسيا الصغرى حتى وصلوا إلى بحر بنطس، مما أثار سخط الأرستقراطية العسكرية وقاموا بالثورة ضده.

ميخائيل الكبير، تاريخ ميخائيل، ج٣، ص١٣.

Ostrogorsky, Byz. State, p. 298؛ Hussey, Later Macedonians, p. 205

(٣) إسحاق كومنين، ولد سنة ١٠٠٧م، ويرجع نسبة إلى أسرة كومنين الشهيرة، وبالرغم من فترة حكمه القصيرة، إلا أنه عمل على إصلاح أوضاع الدولة الاقتصادية، وأوضاع الجيش.

لمزيد من التفاصيل أنظر:

Hussey, Later Macedonians, p. 206؛ O.D.B., 2, pp. 1011-1012.

(٤) هيرف، قائد نورماني استعان قنسطنطين مونوماخوس وزوي بفرقته لقتال البشناق والسلاجقة، ونتيجة لرفض ميخائيل السادس بعض مطالبه، رحل إلى آسيا الصغرى عازمًا على الانتقام، وانضم إليه جماعة من النورمان وتحالف مع ساموك الذي حقق بواسطته نجاحًا كبيرًا في الهجوم على الأراضي البيزنطية.

نبيلة مقامي، العلاقات بين الدولة البيزنطية والنورمان، ص ٤٠.

(5)Vryonis, Decline, pp. 87-88؛ Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 70؛ Laurent, Byzance et Les Turcs, pp. 23-24؛ Charanis, P., "The Byzantine Empire in The Eleventh Century" in: Setton, K.M., & Baldwin, M.W., (eds), History of the Crusades, I, (Philadelphia 1955), pp. 190-191.

=

وقامت جماعة تركمانية أخرى بنهب المنطقة الواقعة جنوبي طرابيزون وهنزيت Khanzt[1]، وبعد شهر واحد من اعتلاء إسحاق كومنين العرش قامت جماعة تركمانية بزعامة القائد دينار Dinar بالهجوم على مدينة كمخ Camacha[2]، ومدينة كلونية Colonia[3]، وكذلك نهبت مدينة ملطية التي حلَّ بها نفس مصير مدينة أرزن[4].

أما على الجانب السلجوقي فقد ساعدت الظروف-بطريقة غير مباشرة- على زيادة الهجوم السلجوقي على آسيا الصغرى؛ نتيجة لوقوع نزاع بين طغرلبك وإبراهيم إينال، ووقوف قتلمش إلى جوار إبراهيم إينال في قتاله الذي انتهى بمقتله، ففرَّ قتملش إلى آسيا الصغرى؛ خوفًا من بطش طغرلبك لموقفه السابق، وكان بصحبته ٦ آلاف فارس، وهاجم عدة مدن واستولى على مدينة قرص Kars (قارص Carse) [5]، وأثناء تعقب

=

خلاط، مدينة مشهورة في أرمينية عامرة بالسكان تقع قرب مدينة مانزيكرت وصفها أبو الفدا: "بأن لها بساتين كثيرة وأنهار". أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ٣٩٥؛لسترنج، بلدان الخلافة، ص ١٢٨.

(1)Cahen, La Premiere Penetration, p.22.

- هنزيت أو هنزيط، من الثغور الإسلامية وتقع قرب ملطية.

البغدادي، مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق/ علي محمد البجاوي، ج٣، (القاهرة ١٩٥٤)، ص ١٤٦.

(٢) كمخ أو كمخا، إحدى مدن أرمينية تقع على رافد نهر الفرات الغربي وتتبعها عدة قرى خصبة.

لمزيد من التفاصيل عن هذه المدينة:

ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٤٤٥؛ لسترنج، بلدان الخلافة، ص ١٥٠-١٥١.

Ramsay, Historical Geography, p. 18.

(٣) كلونية أو قلونية، مدينة تقع شمال مدينة ملطية. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤. ص ٤٤٦.

(4)Matthieu D'Edesse, Chronique, pp. 107-109؛ Vryonis, Decline, p. 88؛Cahen, Turkish Invasion, p. 147؛Laurent, Byzance et Les Turcs, p.24.

- ملطية، تقع شرق قبادوقيا، على راس الطرق المؤدية من آسيا الصغرى إلى أعالي الجزيرة، وكانت من أعظم الثغور الإسلامية في مواجهة البيزنطيين.

لمزيد من التفاصيل: الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق/ جانين سورديل طومين، (دمشق ١٩٥٣)، ص٨٣. أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ٣٨٤.

Ramsay, Historical Geography, p. 313.

(٥) قرص، مدينة أرمينية تقع شمال شرق آسيا الصغرى، انتعشت كمركز تجاري بين مدينة أني ومدينة أرزورم، وأصبحت مركزًا ثقافيًا هامًا.

O.D.B., 2, p. 1108.

طغرلبك له قام هو الآخر بتدمير عدة مدن في أيبيريا[١].

سرعان ما اشتدت حدة الهجمات السلجوقية على آسيا الصغرى، وبدأت تدخل مرحلة الفتح المنظم في عهد قنسطنطين العاشر دوقاس Constantine X Ducas (**١٠٥٩-١٠٦٧م**)[٢]، ففي نفس العام الذي اعتلى فيه هذا الإمبراطور العرش هاجم السلاجقة مدينة سيواس (سباستيا Sebastieia) وقاموا بتدميرها[٣]، ولم يكتف هذا الإمبراطور بعدم قيامه بأي دور في التصدي للهجوم السلجوقي المستمر، بل إنه أهمل الجيش البيزنطي إهمالًا كبيرًا، وانتقده في ذلك مستشاروه المدنيون مثل المؤرخ ميخائيل بسللوس[٤]، مما شجع السلاجقة على تكثيف هجومهم على آسيا الصغرى التي أضحت مسرحًا لهجماتهم فبلغوا مدن وسط آسيا الصغرى وغربها التي ظلت فترة طويلة بمنأى عن هجمات السلاجقة[٥].

ولم تتأثر هجمات السلاجقة على آسيا الصغرى بوفاة طغرلبك، حيث واصل ألب أرسلان (**١٠٦٣-١٠٧٢م**) سياسة سلفه، بل ودخلت في عهده سياسة السلاجقة تجاه أراضي آسيا الصغرى طورًا جديدًا، إذ غدت تستهدف الاستيلاء عليها وامتلاكها[٦].

---

(١) الحسيني، الدولة السلجوقية، ص **١٩-٢٠**؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، (بيروت **١٩٠٨**)، ص **٨٧-٨٩**؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص**٣٤١-٣٤٥**.

Cedrenus, Historiarum Compendium, pp. 606-607; Kafesoglu, Seljuks, p.44.

(٢) قنسطنطين العاشر دوقاس، ولد سنة **١٠٠٦**م، ويعد عصره انتصارًا للبيروقراطية المدنية في القسطنطينية على الأرستقراطية العسكرية في الأقاليم.

لمزيد من التفاصيل:

Vasiliev, Byz. Empire, I, p. 352; Franzius, Byz. Empire, p. 284;

O.D.B.I, pp. 501-502.

(3)Charanis, Byz. Empire, p. 191.;Laurent, Byzance et Les Turcs, p. 24;

- سيولس، مدينة أرمينية مشهورة تحدها من الشرق مدينة أرزورم، وبينها وبين مدينة قيصرية **٦٠٠** ميل، وصفها ابن بطوطة بأنها "حسنة العمارة" واسعة الشوارع، أسواقها غاصة بالناس؛ ابوالفداء، تقويم البلدان، ص**٣٨٤-٣٨٥**؛ ابن بطوطة، تحفة النظار، ص**١٩٧**.

(٤) نقلاً عن:

Charanis, Byz. Empire, pp. 197-199.

(5)Hussey, Later Macedonians, pp. 207-208; Franzius, Byz. Empire, p. 285; Vryonis, Decline p. 95.

(٦) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٦٨.

فقد خرج ألب أرسلان على رأس جيش كبير للغزو في آسيا الصغرى، وبعد أن فتح عدة مدن وحصون في «بلاد الكرج»[١]، اتجه إلى مدينة آني الأرمينية فاستولى عليها بعد حصار شاق سنة (٤٠٦هـ/ ١٠٦٤م)، واضعًا بذلك نهاية للحكم البيزنطي لأرمينية[٢]، وقد أدت انتصارات ألب هذه إلى خضوع العديد من حكام تلك الجهات له، فخضع له جاجيك عباس Gagik Abas (١٠٢٩-١٠٦٥م) ملك قرص الذي تنازل للسلطان عن أملاكه[٣].

وبذلك استولى السلاجقة على آني وقرص، العاصمتين القديمتين لأرمينيه والمركزين الأساسيين لقوة الدولة البيزنطية ونفوذها في شمال شرق آسيا الصغرى، وسيطروا على أرمينية، الدرع الواقي للدولة البيزنطية في الشرق[٤]. وأضحى الطريق مفتوحًا أمامهم على مصراعيه للغزو والسيطرة على آسيا الصغرى، فاجتاحوا إقليم قبادوقيا Cappadocia[٥]، ودمروا مدينة قيصرية Caesareia[٦]، واقتحموا كنيسة

---

(١) بلاد الكرج، نسبة إلى الكرج وهو قوم من النصارى يسكنون جبال القبق في أرمينية، وقد زادت قوتهم حتى سيطروا على عدة مدن ومنها تفليس.
ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٥٠٦-٥٠٧.

(2)Attaliatae, Historia, pp. 80-83؛Scylitzae, Exoerpta, pp. 653-654؛
Matthieu D'Edesse, Chronique, pp. 1263-124.
الحسيني، الدولة السلجوقية، ص ٣٧-٤٠؛ ابن الاثير الكامل، ج٨، ص٣٦٨ -٣٧٠.فايز نجيب أسكندر، استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية، "أني" سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م، (الإسكندرية ١٩٨٧)، ص٩.

(3)Matthieu D'Edesse, Chronique, pp. 125-126؛ Der Nersessian, Armenians
, p. 40؛ Finlay, Hist. Greece, 2, p. 18.

(٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٦٨؛ حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، (القاهرة ١٩٩٣)، ص ١٨٥.

(٥) قبادوقيا أو قباذق، من أكبر أقاليم آسيا الصغرى، يمتد من جال بنطس حتى طرسوس ومن بحيرة الملح حتى الفرات، واكتسب أهمية كبيرة لتحكمه في الطرق الرئيسية الهارة عبر آسيا الصغرى.
ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤. ص ٣٤٤.

O.D.B., I, pp. 378-379.

(٦) قيصرية، تكتب قيسارية أو قيصارية، وهي Caesarea Mazaka عاصمة إقليم قبادوقيا، تقع شرق مدينة سيواس، وأصبحت قاعدة عسكرية في القرنين الحادي والثاني عشر الميلاديين.
Ramsay, Historical Geography, pp. 303-304؛O.D.B.,I, pp. 363-354.
الهروي، الإشارات، ص ٥٩-٦٠؛أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ٣٨٣؛ لسترنج، بلدان الخلافة، ص ١٧٨.

القديس باسيل St Basil، ودمروا محتوياتها[1].

على أن الهجوم السلجوقي على آسيا الصغرى لم يقف عند هذا الحد، بل إن العديد من الأمراء التركمان قد استغلوا ضعف المقاومة البيزنطية وشاركوا في هذه الملحمة الهجومية، فقاموا بشن هجمات متواصلة على آسيا الصغرى، وكان من أبرز هؤلاء الأمراء: الأمير أفشين بن بكجي Afshin، الذي بدأ عملياته العسكرية بالهجوم على مدينة قيصرية، وتوجه منها إلى مدينة قيصرية الجديدة (Neo-Caesarea) أو نيكسار[2] فقام بنهبها، ثم دمر مدينة قونية، ووصل إلى مدينة عمورية الشهيرة في أقصى غرب آسيا الصغرى، فضلاً عن أن مدينة خوناي لم تنجُ هي الأخرى من تدميره[3].

وهكذا انطلق أفشين يغزو ويدمر في آسيا الصغرى حتى وصل إلى حد قول ابن العبري: «إلى ساحل البحر الذي يمر بالقسطنطينية (بحر مرمره) وغزا وسبى وانطلق إلى مقدونية»[4].

على هذا النحو اجتاح السلاجقة آسيا الصغرى وشنوا هجماتهم المدمرة على معظم أنحائها دون أن يجدوا مقاومة تذكر؛ نظرًا لِما انتاب الدولة البيزنطية في ذلك الوقت من

---

(1)Scylitzae, Exoerpta, pp. 660-661؛ Laurent, Byzance et Les Turcs, pp.24-25؛ Vryonis, Decline p. 95؛ Turan, O., "Anatolia in the period of the Seljuks and the Beyliks", C.H.I., (1970), p. 232.

- كنيسة القديس باسيل، نسبة إلى باسيل العظيم أسقف مدينة قيصرية الذي وضع عدة قوانين للرهبان والراهبات، ساهمت بقدر كبير في تطور الحياة الديرية داخل وخارج الدولة البيزنطية.

لمزيد من التفاصيل:

O.D.B., I, pp. 269-270.

(٢) قيصرية الجديدة، يطلق عليها أحيانًا اسم نيكسار وهي إحدى مدن ولاية سيواس.

لسترنج، بلدان الخلافة، ص ١٧٩؛ علي بن صالح المحيميد، الدانشمنديون وجهادهم في بلاد الأناضول، (الإسكندرية ١٩٩٤)، ص ١٨، حاشية٦.

(3) Cahen, Pre-Ottoman Turkey, pp. 71-72؛Scylitzae, Exoerpta, p. 670؛ Kafesoglu, Seljuks, p. 48.؛ Laurent, Byzance et Les Turcs, p. 25.

العظيمي، تاريخ العظيمي، نشره/ كلود كاهن؛

J.A. CCXXX (1938), p. 358.

(٤) ابن العبري، تاريخ الزمان، نقله إلى العربية/ إسحق ارمله، (بيروت ١٩٨٦)، ص ٨.

(Kafesoglu, Seljuks, p. 48).

ضعف واضطراب نتيجة الصراع بين البيروقراطيين في العاصمة، والعسكريين في الأقاليم[١]،فما ترتب على هذا الصراع من فوضى وإهمال الأباطرة للأمور العسكرية كان الطريق الذي عبَر من خلاله السلاجقة إلى آسيا الصغرى، وساعدهم على اجتياح أراضيها على حد قول هسي Hussey[٢].

على أن الأمر الذي ينبغي ملاحظته، هو أنه على الرغم من النجاح الذي حققه السلاجقة في آسيا الصغرى، إلا أنهم لم يحاولوا الاستقرار فيها؛ حيث انشغلوا خلال تلك الفترة بتنظيم أمور دولتهم وفرض سيطرتهم على البلدان الإسلامية، فضلاً عن صراعهم مع الدولة الفاطمية.

يضاف إلى ذلك أنه بالرغم من انتصاراتهم العديدة في آسيا الصغرى إلا أنها كانت لا تزال مكانًا غير آمن لإقامة الجماعات السلجوقية؛ ذلك لوجود عدد كبير من القلاع والحصون التي أقامها البيزنطيون في كل مكان في آسيا الصغرى للدفاع عنها وحماية سكانها[٣]، فضلاً عن مقاومة بقايا القوات البيزنطية في آسيا الصغرى[٤].

على هذا النحوكان وضع السلاجقة في آسيا الصغرى حتى موقعة مانزيكرت سنة (٣٦٣هـ/ ١٠٧١م)، التي حقَّق فيها السلاجقة انتصارًا رائعًا على الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجنيس Romanus IV Diogenes (١٠٦٨-١٠٧١م)،

---

(١) ظهر هذا الصراع بعد وفاة باسيل الثاني بقليل، إذ تولى بعده أباطرة ضعاف عملوا على تحويل دفة الأمور إلى البيروقراطيين وإزالة الشكل العسكري من الإدارة البيزنطية، الأمر الذي أدى إلى سخط العسكريين وقيامهم بالثورة، فتحركت جيوش الأقاليم لمساندتهم واستغل السلاجقة هذه الظروف وهاجموا آسيا الصغرى، كما أن هؤلاء الأباطرة البيروقراطيين أهملوا الجيش، وامتنعوا عن دفع مرتبات الجنود، وإمداد قواته بما تحتاج إليه من مؤن وإمدادات وقاموا بتسريح عدد كبير من جنوده الأمر الذي أضعف الجيش و ساعد على تزايد حدة الهجوم السلجوقي.

Vryonis, Social Basis, pp. 160-161؛ Idem, Decline, pp. 85-86؛ Charanis, Byz. Empire, pp. 195-196؛ Ostrogorsky, Byz. State, pp. 383-384.

(2)Husssey, Later Macedonians, pp. 194-195.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن القلاع والحصون في آسيا الصغرى:

Foss, C., "The Defenses of Asia Minor Against The Turks". G.O.T.R., 27 (1982), pp. 145-205.

(4)Turan, Anatolia, p. 232.

والتي قلبت الأوضاع في آسيا الصغرى رأسًا على عقب[1].

*****

موقعة مانزيكرت مدخل للحروب الصليبية:

إذا كانت الظروف لم تسمح للسلاجقة قبل موقعة مانزيكرت بالاستقرار في آسيا الصغرى، فلم يَعُد هناك بعد هذه الموقعة أي عائق يحول دون بقائهم في هذا الإقليم، أو أي خطر يتهددهم من قبل البيزنطيين بعد الانهيار التام لمقاومتهم، وهو الأمر الذي عبر عنه ميخائيل الكبير بقوله: «لم يعد الروم (البيزنطيون) يستطيعون مجابهة الأتراك بعد هزيمتهم»[2].

ذلك أن الدولة البيزنطية قد تعرضت للعديد من الهزائم في الماضي، لكنها كانت في كل مرة تستطيع تخطي أزماتها والنهوض كقوة عظمى من جديد، لكنها بعد كارثة مانزيكرت عجزت عن استرداد قوتها مرة أخرى، إذ قضت هذه الموقعة عليها سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا، وأدت إلى استيلاء السلاجقة على آسيا الصغرى وتأسيس سلطنة سلاجقة الروم[3].

على ذلك يمكن القول بأن موقعة مانزيكرت كانت التمهيد الحقيقي للاستيطان

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن موقعة مانزيكرت:

الحسيني، الدولة السلجوقية، ص ٣٤-٥٣؛ عماد الدين الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار/ الفتح بن علي بن محمد البنداري، (بيروت ١٩٨٠)، ص٤٠-٤٣؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، (حيدر آباد ١٣٥٩)، ج٨، ص ٢٦٠-٢٦٢؛ الرواندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة/ عبد النعيم محمد حسنين؛ فؤاد عبد المعطي الصياد، (القاهرة ١٩٦٠)،ص ١٨٨-١٩٠؛ ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق/ سامي الدهان، ج٢، (دمشق ١٩٥١)، ص ٢٦٢-٢٦٨.

Taeschner, F., "The Turks and The Byzantine Empire to the End of the Thirteenth Century", C.M.H., 4, I, (1964), pp. 739-740.

بسام العسلي، الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، (بيروت ١٩٧٨)، ص ٢٩-٣٠.

(٢) ميخائيل الكبير، تاريخ ميخائيل، ج٣، ص ١٣٨-١٣٩.

(3)Vryonis, Social Basis, p. 159; Vasiliev, Byz. Empire, I. pp. 356-357.

عمر كمال توفيق، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، (القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٣٠.

السلجوقي لآسيا الصغرى، التي أضحت بعدها جثة هامدة تحت أقدام السلاجقة، فأخذوا في السيطرة على مدنها الواحدة تلو الأخرى والاستقرار بها[1].

لكن كيف حدث هذا التحول؟ وما هي العوامل التي ساعدت على حدوثه:

يبدو أن هذا التحول الخطير في موقف السلاجقة في آسيا الصغرى بعد مانزيكرت يكمن في حالة الحرب الأهلية والفوضى السياسية التي أعقبت هذه الموقعة داخل القسطنطينية، فقد ساعدهم ذلك على الاستقرار بها، واستغل السلاجقة هذه الظروف وأخذوا يتوغلون في آسيا الصغرى، في الوقت الذي لم تتورع فيه أطراف النزاع على العرش الإمبراطوري عن الاعتماد عليهم، بل وقاموا باستدعاء السلاجقة إلى قلب آسيا الصغرى، وسلموهم العديد من المدن لحراستها لهم-تلك المدن التي لم يكن قد دخلها السلاجقة من قبل- ولكن السلاجقة لم يكتفوا بحراسة هذه المدن وإنما قاموا بالاستيلاء عليها[2].

وهكذا سيطر السلاجقة على معظم مدن آسيا الصغرى؛ الأمر الذي دفع الكسيوس إلى التوجه نحو الغرب الأوربي يطلب المساعدة للدفاع عن دولته ضد المد السلجوقي واسترداد آسيا الصغرى من السلاجقة، وما ترتب علي ذلك من استجابة البابا أوربان الثاني لتقديم المساعدة للدولة البيزنطية وحماية المسيحية الشرقية بعد أن انتهى دور الدولة البيزنطية في القيام بهذه المهمة، وزيادة على ذلك عجزت عن الدفاع هي نفسها عن أراضيها ضد المد السلجوقي، وكان من نتيجة ذلك قيام الحركة الصليبية.

ولهذا فإن «موقعة ملازكرد (مانزكرت) تبرر-في نظر كثير من المؤرخين- ما حدث سنة (**١٠٩٥**م) من دعوة للحرب الصليبية، على أساس أن هذه الدعوة إنما جاءت رد

---

(1)Cahen, Pre-Ottoman Turkey,Idem, Turkish Invasion, p. 149؛ p. 72؛
Brice, W.C., "The Turkish Colonisation of Anatolia", B.J.R.L., 38 (1955), pp. 18-19.

فشر، (هـ. أ. ل)، تاريخ أوربا العصور الوسطى، ترجمة/ محمد مصطفى زيادة، السيد الباز العريني، ج١، (القاهرة **١٩٥٤**)، ص **١٧٢-١٧٣**.

(2)Vryonis, Social Basis, pp. 165-166؛Cahen, la Premiere Penetration, p. 33.

فعل للكارثة التي حلت بالدولة البيزنطية سنة (١٠٧١م)»[١].

وكانت البداية عندما استغل ألب أرسلان الأول الحرب الأهلية التي نشبت بعد إطلاق سراح الأمبراطور رومانوس الرابع[٢]، وعزم على الهجوم على الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى والسيطرة عليها، فأعلن أنه سيذهب لينتقم لما حلَّ لحليفه رومانوس الرابع من هزيمة وإهانة على يد أعدائه وأعطى لرجاله حرية الغزو والفتح في آسيا الصغرى[٣].

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال هام وهو: هل كان السبب الحقيقي الذي دفع ألب أرسلان إلى إعلان ذلك هو رغبته في الانتقام لحليفه رومانوس الرابع؟ كما يقول زوناراس Zonaras بأنه «عندما علم بما جري لصديقه وحليفه استشاط غضبًا، وهاجم أراضي الروم لا لغزوها فقط بل للاستيلاء عليها»[٤].

في الواقع يبدو أن مبرر الانتقام هذا كان مجرد ذريعة تذرع بها ألب أرسلان لخرق المعاهدة التي كان قد عقدها مع رومانوس الرابع[٥]والهجوم على الأراضي البيزنطية، ذلك أنه لم يكن أمر رومانوس الرابع يهم ألب أرسلان في شيء، بل كان من مصلحته استمرار الحرب الأهلية داخل الدولة البيزنطية، والتي ستؤدي بالضرورة إلى مزيد من

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٧١.

(٢) اندلعت هذه الحرب الأهلية بعد عودة رومانوس الرابع من أسر السلاجقة ومحاولة استرداد عرشه بعد أن انتهز البيروقراطيون في العاصمة، فرصة أسره ونصبوا ميخائيل السابع دوقاس Michael VII Ducas (١٠٧١-١٠٧٨م) إمبراطورًا وخاض رومانوس الرابع لتحقيق ذلك سلسلة من المعارك انتهت بالقبض عليه وسمل عينيه.

لمزيد من التفاصيل:ميخائيل الكبير، تاريخ ميخائيل، ج٣، ص١٣٩؛ فايز نجيب إسكندر، موقعة ملازكرد وصداها في القسطنطينية (٢٦ أغسطس سنة ١٠٧١- ٤ أغسطس سنة ١٠٧٢م)، (القاهرة ١٩٨٧).

Franzius, Byz., Empire, pp. 291-292.؛ Vryonis, Decline, p. 110.

(3)Turan Anatolia, p. 233.Bryennios, Les Quatre Livers, pp. 503-504.؛

Cahen, La Premiere Penetration, p. 31؛ Charanis, Byz. Empire, p. 193.

(4)Zonaras, Epitomae Historiarum, ed. Buttnerwobst, C.S.H.B, T.3, p. 709.

(٥) لمزيد من التفاصيل عن المعاهدة بين الطرفين وبنودها:

ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ٩٩؛ الحسيني، الدولة السلجوقية، ص ٥٢-٥٣.

مرسي الشيخ، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٣١٣.

الفوضى، الأمر الذي يسهل عملية الفتح السلجوقي لآسيا الصغرى، ومما يدل على ذلك أنه أثناء تلك الحرب لم يرسل ألب أرسلان المساعدة العسكرية لحليفه رومانوس الرابع الذي كان قد وعده بها، في حين أخذ الأخير ينتظرها أكثر من مرة، وراح يشجع رجاله على الصمود مبشرًا لهم بقرب وصول المساعدات السلجوقية، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث[١]، وبهذا يتضح أن دعوة الانتقام هذه كانت مجرد حجة للهجوم على آسيا الصغرى، وهو ما أكده كاهن بقوله: «إن قسم ألب أرسلان للانتقام كان مجرد ذريعة لإطلاق حرية السلاجقة للغزو»[٢].

وفي خضم هذه الظروف لم يكن من المنتظر أن يقف ميخائيل السابع[٣] مكتوف اليدين فحشد جيشًا كبيرًا سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٣م)، أسند قيادته إلى إسحاق كومنين Isaac Komnenos[٤]، وضم إليه القائد النورماني روسل باليل[٥] وبصحبته ٤٠٠ جندي من المرتزقة النورمان للتصدي للسلاجقة والحد من هجماتهم[٦]، إلا أن ذلك الجيش لم يحقق ما كان يصبو إليه ميخائيل السابع، بل على النقيض من ذلك، إذ أتاح سلوكه الفرصة للسلاجقة لتحقيق مزيدًا من التوغل في آسيا الصغرى، وكان ذلك كله بسبب تمرد روسل[٧]، الذي كان كما ذكر برينييوس السبب في أعظم ما وقع

---

(١) فايز إسكندر، موقعة ملازكرد، ص ١٦، ٢٢.

(2)Cahen, La Premiere Penetration, p. 31.

(٣) ميخائيل السابع، كان تلميذًا للمؤرخ ميخائيل بسللوس الذي مدح كثيرًا طبيعته المغرمة بالدرس وحب المطالعة.

نقلاً عن:

Charanis, Byz. Empire, p. 199؛ Hussey, Later Macedonians, p. 201.

(٤) إسحاق كومنين، هودمستق الشرق وابن شقيق الإمبراطور الذي يحمل نفس الاسم

Treadgold, Byz. State, p. 606.

(٥) انظر ما سبق ص ٣٢، هامش (١)

(6)Attaliatae, Historia, p.183؛ Bryennios, Les Quatre Livers, p. 503؛ Zonaras, Epitomae, 3, p. 709؛ Vryonis, Decline, p. 110؛ Treadgold, Byz. State, p.606.

(٧) كان روسل يفكر في الثورة منذ فترة لتحقيق هدفه بإقامة دولة نورمانية في آسيا الصغرى، وجاءت له الفرصة عندما قام إسحاق بمعاقبة أحد الجنود النورمان لقيامه بالإعتداء على السكان المحليين، فاتخذ هذا الحادث ذريعة للتمرد.

=

للإمبراطورية البيزنطية من شرور[1]؛ وذلك لأنه بعد انسحاب روسل التقى الجيش البيزنطي المضطرب بقيادة إسحاق كومنين بالسلاجقة، الذين كانوا يفوقونه عددًا وكفاءةً، فتمكنوا من هزيمته بالقرب من حدود قبادوقيا، ووقع عدد كبير من البيزنطيين في الأسر، كان من بينهم إسحاق كومنين نفسه، وتم تدمير معسكر الجيش البيزنطي[2].

على هذا النحو، فشلت آخر محاولة بيزنطية-حتى عهد الكسيوس- لإيقاف الزحف السلجوقي على آسيا الصغرى، الأمر الذي أدى إلى تزايد جرأة السلاجقة، فضاعفوا من هجومهم على آسيا الصغرى، وبدأوا في السيطرة على مداخل الطرق والممرات الحيوية الممتدة عبر هذا الإقليم، وفي احتلال الريف حول المدن، والقرى التي عزلوها عن بعضها البعض[3].

ومن ناحية أخرى استغل روسل هو الآخر هذه الهزيمة وقام باحتلال عدد من المدن شرق آسيا الصغرى، وفرض الضرائب عليها، بل وتمكن من هزيمة الجيش البيزنطي الذي أرسله ميخائيل السابع لقتاله وأسر قائده القيصر يوحنا دوقاس John Ducas مع عدد كبير من رجاله[4].

ونتيجة لازدياد خطر روسل وعجز القوات البيزنطية عن التصدى له اتخذ ميخائيل السابع خطوة على جانب كبير من الخطورة-سيكون لها أسوأ النتائج على

=

لمزيد من التفاصيل:

Attaliatae, Historia, pp. 183-184؛ Bryennios, Les Quatre Livers, pp. 503-504؛ Zonaras, Epitomae, 3, p. 709؛ Vryonis, Decline, pp. 106-109.

سميرة يونس، النورمان والدولة البيزنطية، ص ٨٣.

(١) نقلاً عن:

Vryonis, Decline, p.18.

(2)Attaliatae, Historia, pp.183-184؛Bryennios, Les Quatre Livers, p. 504؛ Zonaras, Epitomae, 3, pp. 709-710؛ Cahen, La Premiere Penetration, p.33؛ Treadgold, Byz. State, p. 606.

(3)Attaliatae, Historia, p.184؛Vryonis, Decline, pp. 110-111؛ Treadgold, Byz. State, p. 606.

(4)Attaliatae, Historia, pp. 184 -185؛Zonaras, Epitomae, 3, p. 710؛ Vryonis, Decline, p.107.

النفوذ البيزنطي في آسيا الصغرى- وهي الاستعانة بالسلاجقة للقضاء على تمرده، فأرسل إلى الأمير السلجوقي أرتق[1] مقدمًا له الكثير من الأموال والهدايا، ووعده بأنه إذا نجح في القبض على روسل، وسلمه إليه سيكون من حق السلاجقة البقاء في كل ما يفتحونه من أراضي كان قد استولى عليها روسل من قبل[2].

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال هام وهو: **كيف يجرؤ ميخائيل السابع على طلب مساعدة السلاجقة أعداء الدولة البيزنطية، الذين حاول الأباطرة البيزنطيون مرارًا التصدى لهم، بل إن رومانوس الرابع راح ضحية مقاومتهم، وميخائيل السابع نفسه كان قد أرسل منذ قليل جيشًا لإيقاف زحفهم؟، وكيف يسمح لنفسه بأن يقدم للسلاجقة هذا العرض الذي يجعل آسيا الصغرى لقمة سائغة في فمهم؟، ألم يكن ميخائيل السابع يدرك أطماعهم التي لن تنتهي عند هذا الحد، بل إنه بذلك سيفتح لهم الباب لمزيد من الأطماع في آسيا الصغرى؟.**

لا شك أن ميخائيل السابع كان مضطرًا لاتخاذ هذه الخطوة خاصة بعد أن زاد خطر روسل وأصبح يهدد مكانة الإمبراطور نفسه، عندما أعلن أسيره القيصر يوحنا دوقاس إمبراطورًا منافسًا له[3]، فهو لم يكن يجهل أطماع السلاجقة لكنه ليس أمامه أحد

---

(١) ارتق هو: ارتق بن اكسب، جد الأرتقية ومؤسس دولتهم التي لعبت دورًا هامًا في مجريات الحوادث التاريخية لمنطقتي أعالي الشام والجزيرة في العصور الوسطى، وكان من بين العناصر السلجوقية التي استغلت الفوضى التي عمت الدولة البيزنطية بعد مانزيكرت وقام بالغزو في آسيا الصغرى.

لمزيد من التفاصيل:

ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، يوسف على طويل- مريم قاسم طويل، (بيروت١٩٩٨)، ج١، ص ١٩٩؛ محمد رمضان بطران، بنو أرتق وسياستهم الخارجية في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الآداب- جامعة القاهرة، ١٩٩٩، ص ٤-٥

لمزيد من التفاصيل عن الظهور الفعلي لهذا الأمير ودوره وفتوحاته: محمد رمضان، بنو أرتق، ص ٤٥-٥٥.

(2)Attaliatae, Historia, p.189؛Scylitzae, Exoerpta, p. 710؛ Bryennios, Les Quatre Livers, p. 519؛ Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p.73؛ Idem, La premiere penetration, p. 33؛Laurent, J. "Byzance et Les Origines du Sultant de Roum", Etudes Sur L' Histoire et sur L' Art de Byzance, in: Melanges Charles Diehl, I,

زبيدة محمد عطا، بلاد الترك في العصور الوسطى بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون، (القاهرة د.ت)، ص ٥٦.

(3)Zonaras, Epitomae, 3, p. 710.Scylitzae, Exoerpta, 3, p. 710؛

سواهم ليستنجد به، فقد كانوا القوة الوحيدة القادرة على مساعدته في أزمته على حد قول رنسيمان[1].

على أي حال، فإن تصرف ميخائيل السابع هذا يدل على مدى الضعف الذي وصلت إليه الدولة البيزنطية وجيشها في الوقت الذي زادت فيه قوة السلاجقة ونفوذهم، كما أنه يدل على قصر نظر الإمبراطور البيزنطي وعدم إدراكه لعواقب الأمور، فالسلاجقة لم يقبلوا على تقديم هذه المساعدة رغبةً منهم في إنقاذ الدولة البيزنطية أو إقالتها في عثرتها، وإنما كان كل ما يعنيهم هو تحقيق هدفهم الأساسي وهو السيطرة على آسيا الصغرى، ومما يدل على ذلك أنهم عندما تمكنوا من هزيمة روسل والقبض عليه لم يسلموه لميخائيل السابع وفقًا لاتفاقهم معه، بل سلموه لزوجته قبل وصول المبعوث البيزنطي[2].

مما لا شك فيه أن هذا العمل يدل على مدى ذكاء الأمير السلجوقي، الذي كان يدرك جيدًا أطماع روسل في الدولة البيزنطية التي لن تنتهي عند حد معين، وأنه إذا أطلق سراحه سيواصل اعتداءاته ضد الأراضي البيزنطية، الأمر الذي سيؤدي إلى مزيد من الفوضي، وعندئذٍ سيضطر الإمبراطور إلى الاستعانة بالسلاجقة مرة أخرى، مما سيعود بالنفع عليهم، ولذلك لم يسلم الأمير السلجوقي روسل لميخائيل السابع، وإنما سلمه لزوجته ليس لأنها افتدته بفدية كبيرة كما يذكر برينيوس[3]؛ لأنه كان بإمكان هذا الأمير أن يساوم ميخائيل السابع، الذي بات في وضع حرج للغاية، الأمر الذي قد يضطره إلى قبول أي طلب، أو تقديم أية فدية يطلبها السلاجقة، ولكنه كان يطمع فيما هو أكبر من ذلك، ومن هنا قدم روسل لزوجته ولم يقدمه للإمبراطور لميخائيل السابع.

على أي حال، فإن ما خطط له الأمير السلجوقي قد حدث، فبعد أن أطلق صراح

=

Vryonis, Decline, p.107؛ Angold, Byz. Empire, p. 94.

(١) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١، ص١١٤.

(2)Scylitzae, Exoerpta, pp. 710-712؛ Bryennios, Les Quatre Livers, pp. 519-520؛ Zonaras, 3, Epitomae, p.711؛ Cahen, La Premiere Penetration, p. 33؛ Treadgold, Byz. State, p. 606.

(3)Bryennios, Les Quatre Livers, p. 520؛ (Zonaras, Epitomae,3, p. 711).

روسل انطلق نحو أرمينية، التي كان له فيها العديد من الأنصار، وعاوده الأمل في إنشاء دولة نورمانية في تلك الجهات، فاستولي على مدن أماسية Amaseia[1] وقيصرية الجديدة وعدة مدن أخرى ملحقًا بها الدمار[2]، وشكل تهديدًا خطيرًا للدولة البيزنطية، الأمر الذي دفع أتالياتس إلى القول: بأن الإمبراطور كان يفضل رؤية الأتراك (السلاجقة) في أراضي الروم على أن يرى هذا الرجل في أي شبر منها[3].

كان ذلك كله في مصلحة السلاجقة؛ ذلك لأن ميخائيل السابع لم يلبث أن طلب مساعدتهم مرة أخرى، ولم يدع السلاجقة هذه الفرصة تضيع من أيديهم فقبل الأمير السلجوقي توتاق بترحاب عرض القائد البيزنطي الكسيوس كومنين بالتحالف ضد روسل، وضاربًا عرض الحائط باتفاقه السابق معه[4].

الأمر الذي يوضح كيف أن السلاجقة كانوا يستغلون كل فرصة ممكنة قد تحقق لهم مزيدًا من السيطرة على أجزاء من آسيا الصغرى بغض النظر عن الطرف الذي يحالفونه فالوقوف إلى جانب ميخائيل السابع سيحقق لهم مكاسب أكبر من الوقوف إلى جانب روسل الذي قام منذ قليل بمهاجمة المدن الأرمينية التي كان السلاجقة يسيطرون

---

(١) أماسية أو أماصية، مدينة كبيرة على نهر ليكوس جنوب بحر بنطس، ونقطة اتصال الطرق الحيوية التي تمر بالمنطقة:

لمزيد من التفاصيل:

أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ٣٨٣؛ ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ١٩٨.

O.D.B., I, 3, p. 74.

(2)Zonaras, Epitomae, 3, p. 712؛ Vryonis, Decline, p.107؛ Anglod, Byz, Empire, p. 94.

(3)(Scylitzae, Exoerpta, p. 713)Attaliatae, Historia, p.199؛

(4)Attaliatae, Historia, p.199؛Scylitzae, Exoerpta, p. 713؛ Bryennios, LesQuatre Livers, p. 522؛ Anna Comnena, Alexiad, pp. 33-34؛ Zonaras, Epitomae, 3, p. 712؛ Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 73؛Idem, La Premiere Penetration, p. 33؛ Vryonis, Decline, p.108؛

- كان هناك تحالف بين روسل وتوتاق، حيث تحالف روسل مع الأمير السلجوقي، وذلك للاستعانة بقواته العسكرية لإجبار المدن التي امتنعت عن دفع الضرائب له لدفعها بالقوة.

Bryennios, Les Quatre Livers, pp. 521- 522.

عليها[1].

وقد أخذ القائد الكسيوس كومنين يحصي هذه المكاسب لمبعوث الأمير توتاق إليه والتي يأتي على رأسها كسب ثقة الإمبراطور، هذه الثقة التي تجعله يعتمد على مساعدة السلاجقة ضد أي خطر قد يهدد دولته، ومن هنا استغل توتاق فرصة قدوم روسل إليه وقام بالقبض عليه وسلمه لالكسيوس كومنين[2].

على أي حال، إذا كان تمرد روسل قد انتهى بالفشل، إلا أنه أظهر عجز الدولة البيزنطية عن التصدى للخارجين عليها، وهو الأمر الذي اضطرها إلى اللجوء إلى السلاجقة الذين أدركوا مدى ضعفها مما شجعهم على اجتياح مدن آسيا الصغرى وقراها حتى وصلوا بهجماتهم إلى إقليم بيثينيا[3] ودمروا العديد من أراضيه[4].

ومما يدل على مدى الانتشار السلجوقي في آسيا الصغرى في هذه الفترة ما ذكره القائد الكسيوس كومنين عن رحلة عودته مع أسيره روسل إلى القسطنطينية، حيث تعرض لهجوم السلاجقة أكثر من مرة، وكاد أن يقع في أسرهم عند مدينة كستمون Kastamon[5] -التي دمرها السلاجقة- ، وعند وصوله إلى مدينة هرقلة (هرقلية

---

(1)Scylitzae, Exoerpta, p. 713.Attaliatae, Historia, p.198؛

(2)Attaliatae, Historia, p.199؛ Scylitzae, Exoerpta, p. 713؛ Bryennios, Les Quatre Livers, p. 522؛Zonaras, Epitomae, 3, p.712؛ Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 73؛ Idem, La Premiere Penetration, p.33؛ Treadgold, Byz. State, p. 606.

(٣) بيثينيا، إقليم يقع في شمال غرب آسيا الصغرى في مواجهة مدينة القسطنطينية، ويشمل على ثلاث مناطق وهي نيقوميديا، ونيقية، وخلقدونية.

لمزيد من التفاصيل:

Ramsay, Historical Geography, p. 94؛ O.D.B.,I, p. 292.

(4)Vryonis, Decline, p.108.

سميرة يونس، النورمان والدولة البيزنطية، ص ٨٦.

(٥) كستمون أو قصطمونية، مدينة غنية واسعة تقع شرق آسيا الصغرى وهي موطن أسرة كومنين، أحتلت مكانة هامة في الفترة البيزنطية المتأخرة.

أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ٣٩٢-٣٩٣؛ ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٢١.

O.D.B.,2, p. 1110.

Heracleria)[1] تعرض لهجوم آخر، الأمر الذي دفعه إلى التخلي عن مواصلة الرحلة برًّا، واتخذ سفينة عبر بحر بنطس إلى القسطنطينية[2].

فضلاً عن ذلك فإن تلك التمردات كانت دليلاً على ضعف الحكومة المركزية، وهذا في حد ذاته كان مكسبًا للسلاجقة، وسياسة «فرق تسد» سياسة لها ثقلها الكبير على مدار التاريخ وفي كل الأحقاب، فمعني التمرد: هو لجوء الإمبراطور البيزنطي والمتمرد لطلب المساعدة السلجوقية، وفي أحيان كثيرة كان يقف السلاجقة إلى جانب المتمرد ليس تعاطفًا معه؛ وإنما إضعافًا للحكومة البيزنطية، الأمر الذي يتيح لهم مزيدًا من الحرية لتحقيق أهدافهم في آسيا الصغرى.

ومهما يكن من أمرٍ فقد استمر الهجوم السلجوقي على آسيا الصغرى طيلة عهد ميخائيل السابع دون أن يستطيع التصدي له، وأصبحت مدينة كريسوبوليس Chrysopolis[3]–التي لا يفصلها عن القسطنطينية سوى بعض الممرات- مستقرًا وقاعدة للسلاجقة التي وصلت إغاراتهم إلى بحر إيجة[4].

سرعان ما استغل القائد البيزنطي بوتانياتس –قائد ثغر الأناتوليك- سوء أوضاع الدولة البيزنطية في عهد ميخائيل السابع بصفة عامة، وعجزه عن التصدي للتوغل السلجوقي في آسيا الصغرى بصفة خاصة، التي أضحت على حد قول:«أتالياتس ميدانًا لغزوات الأعداء... وأصبحت القسطنطينية نفسها مهددة بهذه الخطر بسبب عجز

---

(١)هرقلة أو أركلية، وهي أركلية الحديثة مدينة بآسيا الصغرى عامرة بالسكان وميناء جيد على ساحل بحر بنطس شمال بافلاجونيا.

لمزيد من التفاصيل:

أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ٣٨٣؛ البغدادي، مراصد الإطلاع، ج٣، ص ١٤٥٦؛ لسترنج، بلدان الخلافة، ص ١٦٦.

O.D.B.,I, pp. 915-916.

(2)Bryennios, Les Quatre Livers, p. 520; Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 72; Idem, La Premiere Penetration, pp. 33-34.

(٣) كريسوبوليس، ميناء هام على الشاطئ الشرقي لمضيق البسفور وضاحية لخلقدونية.

O.D.B.,I, p. 455.

(4)Vryonis, Decline, p.112.

سلطاتها وتقصيرها»[1]؛ للقيام بالتمرد[2]، خاصة بعد أن عقد ميخائيل السابع سنة (٤٦٥—٤٦٦هـ/١٠٧٤م) اتفاقية مع سليمان بن قتلمش –مؤسس سلطنة سلاجقة الروم– تنازل فيها عن بعض مدن آسيا الصغرى –التي سبق للسلاجقة الاستيلاء عليها– في مقابل تقديم المساعدة العسكرية للدولة البيزنطية وقت الحاجة، الأمر الذي أدى إلى تزايد نفوذ السلاجقة واكتساب فتوحاتهم صفة الشرعية بهذا الاعتراف[3].

ومن هنا عندما أعلن بوتانياتس تمرده أرسل ميخائيل السابع إلى سليمان بن قتلمش ورجاله مخاطبًا لهم بالأخوة والأقارب، طالبًا مساعدتهم وواعدًاإياهم بالكثير من الأموال والهدايا إذا نجحوا في القبض على هذا المتمرد وتسليمه له[4].

وقد أخطأ ميخائيل السابع مرة أخرى بطلبه هذه المساعدة، إذ لم يكن من مصلحة السلاجقة بأي حال من الأحوال القضاء على حركات التمرد التي كانوا يحققون من ورائها العديد من المكاسب، وخير دليل على ذلك موقفهم من أنصار بوتانياتس، إذ كانوا يسمحون لهم بعبور المناطق التي كانوا يسيطرون عليها دون اعتراض طريقهم أثناء ذهابهم إليه (بوتانياتس)، وفي هذا الصدد يقول أتالياتس: «إنهم (السلاجقة) عندما كانوا يسألون أي شخص ويعلمون أنه متجه إلى بوتانياتس يفسحون له الطريق» مشجعين بذلك على استمرار تمرد بوتانياتس ونجاحه[5]، ولكن طلب ميخائيل السابع المساعدة هذا كان في صالح السلاجقة، حيث لجأ بوتانياتس هو الآخر إليهم طالبًا

---

(1)Attaliatae, Historia, p.21

(2)Attaliatae, Historia, pp.212-213؛ Scylitzae, Exoerpta, p. 726؛ Bryennios, Les Quatre Livers, p. 894؛ Zonaras, Epitomae, 3, p. 715؛ Vryonis, Decline, p.105؛ Angold, Byz. Empire, p. 69.

ميخائيل الكبير، تاريخ ميخائيل، ج٣، ص ١٤٤.

(٣) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٧٨؛ حسنين ربيع، الدولة البيزنطية، ١٩٧.

Finaly, Hist., Greece, 3, p. 88.

(4)Attaliatae, Historia, p.240؛ Scylitzae, Exoerpta, p. 726؛Bryennios, Les Quatre Livers, p. 894؛ Zonaras, Epitomae, 3, p.715؛ Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 75؛Idem, La Premiere Penetration, p.43؛ Angold, Byz. Empire, p. 96.

(5)Attaliatae, Historia, p.269؛ (Scylitzae, Exoerpta, p. 733).

مساعدتهم، الأمر الذي ترتب عليه مزيد من المكاسب بالنسبة لهم.

لكن أليس من المدهش أن يطلب بوتانياتس مساعدة السلاجقة وهو الذي تمرد بسبب عجز السلطات البيزنطية عن التصدي لهم؟!، ألم يكن يدرك أنه بهذا التصرف سوف يقدم للسلاجقة مزيدًا من الفرص للتوغل في آسيا الصغرى والسيطرة على أراضيها؟ فلماذا إذًا طلب هذه المساعدة؟

يبدو أن مفتاح تفسير موقف بوتانياتس يكمُن في الظروف التي أحاطت به، فبالرغم من أن بوتانياتس حاول إخفاء مسيرته إلى نيقية عن السلاجقة وسار إليها ليلاً في طرق غير مألوفة، إلا أن عيونهم استطاعت أن تترصده وتكتشف سيره، وأحاطوا به من كل جهة، وعبر المؤرخ أتالياتس عن هذه المراقبة لبوتانياتس بقوله: «لقد احتشد الأعداء (السلاجقة) ضد (بوتانياتس) من كل صوب... وأحاطوا به من كل جهة... وساروا إلى جواره كأنهم حرس لموكبه»(١).

يضاف إلى ذلك أن السلاجقة كانوا في هذه الفترة يسيطرون على العديد من الطرق والممرات التي تخترق جوف آسيا الصغرى، كما أنهم شنوا هجماتهم على معظم أجزائها بل ووصلوا إلى أقصى غرب آسيا الصغرى، إلى مدن خلقدونية وكريسوبوليس التي أصبحت «موطنا للأتراك»(٢)، ومن هنا كان بوتانياتس مضطرًا-حتى يضمن نجاح تمرده ووصوله إلى القسطنطينية آمنًا- أن يعمل على استمالة السلاجقة إليه وإغرائهم بشتى الوسائل للوقوف إلى جواره، فأرسل إليهم طالبًا مساعدتهم وقدم لهم الكثير من الأموال والوعود بتحقيق مكاسب أكبر إذا وقفوا إلى جانبه وتركوا جانب ميخائيل السابع(٣)، وكانت هذه هي الفرصة التي انتظرها السلاجقة فتخلوا عن ميخائيل السابع واتجهوا إلى بوتانياتس مرحبين(٤).

---

(1)Attaliatae, Historia, p.264.

(2)Vryonis, Decline, p.111 Attaliatae, Historia, p.264 ؛

(3)Attaliatae, Historia, p.240؛ Bryennios, Les Quatre Livers, pp. 894-895؛ Charanis, Byz. Empire, p. 201؛Vryonis, Decline, p.105 .

(4)Attaliatae, Historia, p.241؛ Scylitzae, Exoerpta, p. 732؛Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 7؛Idem, La Premiere Penetration, p. 43؛ Laurent Byzance et Les Origines, p. 178؛ Angold, Byz. Empire, p. 96.

هكذا تخلى السلاجقة عن ميخائيل السابع الذي وقفوا إلى جواره أكثر من مرة، وساعدوه في القضاء على تمرد روسل، الأمر الذي يؤكد ما سبق ذكره، من أن كل ما كان يعني السلاجقة هو تحقيق مصالحهم فقط، فهم يتحالفون مع من يقدم لهم امتيازات أكثر، وفي هذه المرة كان بوتانياتس الذي يبدو أن سليمان بن قتلمش قد أدرك رجحان كفته، خاصة بعد أن رأي بعيني رأسه التأييد الكبير لتمرده ومبايعة سائر المدن وخضوعها له في طريقه إلى نيقية وتسليم حامياتها لقواته[1].

ومن هنا كان الوقوف إلى جانب بوتانياتس (صفقة مضمونة)، فتحالف السلاجقة معه وجاءه سليمان ومنصور ابنا قتلمش وغيرهما من السلاجقة في مدينة نيقية وأظهروا له من مظاهر الطاعة والخضوع مالم يظهروه لأحد من قبله لا من سلاطين السلاجقة أو أباطرة الروم[2]، وقد كان ذلك كله من أجل كسب ثقته والحصول على عطاياه، وبالفعل نجح السلاجقة في تحقيق ذلك إلى حد كبير، فقد استقبلهم بوتانياتس بحفاوة بالغة وخاطبهم بأجمل العبارات، ليس هذا فحسب، بل وسمح لهم بنصب خيامهم خارج نيقية كحاميات تعمل على خدمته بل وكل المدن التي استسلمت لبوتانياتس في طريقه إلى القسطنيطينية مثل خلقدونية Chalcedon وبيلاي Pylae[3] وكريسوبوليس ونيقوميديا Nikomedeia[4] قام بتسليمها لهم، وبذلك دخل السلاجقة هذه المدن الهامة شمال غرب آسيا الصغرى على يد بوتانياتس لأول مرة،

---

(1)Attaliatae, Historia, p.264.

(2)Zonaras, Epitomae,3, pp. 716-726؛Attaliatae, Historia,p226.

(٣) بيلاي، ميناء هام على ساحل بحر مرمره لشحن المواد الغذائية للقسطنطينية واقلع منه رومانوس الرابع سنة ١٠٧١م في حملته المشئومة في مانزيكرت.

O.D.B.,3, p. 1760.

(٤) نيقوميديا، مدينة هامة في إقليم بيثينيا، أطلق عليها الجغرافيون المسلمون اسم نقمودية أو نقموذية، وهي أزميت الحالية Izmit، وكانت قاعدة عسكرية هامة للدولة البيزنطية

لمزيد من التفاصيل:

لسترانج، بلدان الخلافة، ص ١٩٠؛ رايس (تامارا تالبوت)، السلاجقة تأريخهم وحضارتهم، ترجمة/ لطفي الخوري- إبراهيم الداقوقي، (بغداد ١٩٦٨)، ص ٤٧-٤٨، حاشية ١٠

O.D.B.,3, p. 1483.

وكانوا ظاهريًّا يعملون في خدمته بينما في الحقيقة كانوا يعملون لتحقيق أهدافهم[١]، علاوة على ذلك فإنه عندما تم تتويجه إمبراطورًا في القسطنطينية، من الطبيعي أن يرد الجميل لمن قدموا له يد العون والمساعدة وقاموا بحراسة المدن له حتي وصل إلى القسطنطينية، فبذل الأموال والهدايا بسخاء على معاونيه خاصة السلاجقة الذين لم يأل جهدًا في إرضائهم[٢].

ومهما يكن من أمر، فإن تمرد بوتانياتس مثل تمرد روسل من قبله، قد عاد على السلاجقة بالكثير من المكاسب؛ حيث مكنهم من الاستقرار على الشاطئ الآسيوي للبسفور، ولم يعد بمقدور البيزنطيين من الآن فصاعد طردهم من هذا المكان أو حتى الاقتراب منه[٣]، بل ويمكن القول إنه بعد نجاح تمرد بوتانياتس فإن المنطقة الممتدة من بحر بنطس وحتى بحر مرمرة قد خضعت تمامًا لسيطرة السلاجقة[٤].

لم تلبث الأقدار أن ساقت للسلاجقة فرصة جديدة لإحراز نجاح آخر في آسيا الصغرى، وذلك عندما أعلن نقفور برينيوس تمرده ضد ميخائيل السابع سنة(٤٧٠هـ ١٠٧٧م)، وأعلن نفسه إمبراطورًا وحشد له أخوه جيشًا في أدريانوبل اتجه به إلي القسطنطينية للإستيلاء عليها[٥].

وعندما فشلت وسائل بوتانياتس الدبلوماسية –بعد اعتلائه العرش[٦]– للقضاء

---

(1)Attaliatae, Historia, pp.266-268؛ Scylitzae, Exoerpta, pp. 723-733؛ Vryonis, Decline, pp.106-133؛ Laurent, Byzance et Les Origines, pp. 180 -181؛ Charanis, Byz. Empire, p. 201؛ Angold, Byz. Empire, p. 96.

(2)Scylitzae, Exoerpta, p. 735؛Bryennios, Les Quatre Livers, pp. 898-899؛ Treadgold, Byz. State, p. 607.

(3)Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 75؛ Idem, La premiere penetration, p. 43؛ Kafesoglu, Seljuks, p. 50.

(4)kafesoglu, Seljuks, p. 50.

(5)Scylitzae, Exoerpta, p. 727Attaliatae, Historia, pp.242-243؛ Bryennios, Les Quatre Livers, pp. 901-905؛ Zonaras, Epitomae,3, pp. 716-717؛ Ostrogorsky, Byz. State, p.307.

(٦) عندما أعلن برينيوس تمرده حاول بوتانياتس كسبه إلى جواره، فأرسل إليه مذكرًا إياه بالعلاقات الودية التي كانت تجمع بينه -أي بوتانياتس- وبين والده، وعرض عليه أن يتبناه وينصبه قيصرًا ولكن المفاوضات

على تمرد برينييوس وكسبه إلى جواره، لجأ إلى السلاجقة حلفاء الأمس يطلب مساعدتهم، فأرسل إلى منصور وسليمان ابني قتلمش في نيقية مقدمًا لهما الكثير من الأموال والوعود إذا ساعدوه في القبض على برينييوس(١).

إن استعانة بوتانياتس بالسلاجقة تدل على المكانة الهامة التي وصل إليها السلاجقة في ذلك الوقت وما سيطروا عليه من مناطق في آسيا الصغرى، فعندما تمرد برينيوس كانت الدولة البيزنطية تمر بظروف حرجة، فقد ضعف جيشها وتدهورت أوضاعها، وأدى التوغل السلجوقي إلى تشتت جيوش الأقاليم الشرقية في كل اتجاه للتصدى لهذا المد الكاسح، هذا بالإضافة إلى ازدياد قوة السلاجقة الذين أصبحوا يسيطرون على كل مقاطعات آسيا الصغرى الواقعة بين بحر بنطس ومضيق الدردنيل (الهلليسبونت Hellespont) وبحر إيجه وفرضوا سيطرتهم على معظم أنهارها(٢).

كما أنه قد سبق لبوتانياتس الاستعانة بالسلاجقة، فأتاحوا له الفرصة للجلوس على العرش ليكون عميلاً وحليفًا لهم، ومن ثم فقد كان يدرك أن السلاجقة حريصون تمامًا على وجوده على العرش؛ لأنه إذا جلس شخص آخر عليه دون مساندتهم لن يدين لهم بأي فضل وسيكون مناوئًا لهم ويعمل على انتزاع ما سيطروا عليه في آسيا الصغرى.

في ظل هذه الظروف لم يكن أمام بوتانياتس، سوى طلب مساعدة السلاجقة لمواجهة خطر تمرد برينييوس، الذي كان في طريقه إلى القسطنطينية لإقصائه عن منصبه، وكان من مصلحة السلاجقة مساعدته وبقائه على العرش، لذا لبوا دعوته مسرعين(٣)؛ فقد أمده السلاجقة بصفة مبدئية بقوة تتألف من٣ آلاف فارس التحقوا بالقائد الكسيوس كومنين، وأثبتت هذه القوة جدارتها، في القتال الذي دار بين القوات

=

بينهما انتهت بالفشل.

Bryennios, Les Quatre Livers, pp. 903-904.

(1)Bryennios, Les Quatre Livers, p. 902؛Attaliatae, Historia, p. 289؛
Anna Comnena, Alexiad, p. 39؛Laurent, Byzance et Les Origines, p. 181.

(2)Anna Comnena, Alexiad, p. 39.

(3)Bryennios, Les Quatre Livers, p. 902؛Scylitzae, Exoerpta, p. 736؛
Vryonis, Decline, p.106.

البيزنطية بمصاحبة السلاجقة وقوات برينييوسإذ أظهرت هذه الفرقة مهارة فائقة، وكان للرماية والكمائن السلجوقية الدور الحاسم في إنهاء المعركة لصالح بوتانياتس، والقضاء على جيش برينييوس الذي وقع الكثير من رجاله أسرى للسلاجقة(١).

لاشك أن هذه الأحداث التي مرت بها الدولة البيزنطية منذ موقعة مانزيكرت قد أثبتت قوة وجدارة السلاجقة ورجحان كفة من يقفون إلى جواره؛ ولهذا عندما أعلن نقفور ميليسينوس Nicephoros Melissenos(٢) تمرده في جزيرة كوس Cos(٣) سنة (٤٧١-٤٧٢هـ/١٠٧٩م)، وإيمانًا منه بقوة السلاجقة العسكرية المهيمنة على آسيا الصغرى، وتقليدًا لمن سبقه من المتمردين، طلب مساعدة السلاجقة، الذين سرعان ما تخلوا عن بوتانياتس-حليف الأمس- واتجهوا إلى ميليسينوس(٤)، الذي قدم لهم عرضًا مغريًا، ففي مقابل إمداده بالقوات العسكرية التي ستساعده في دخول القسطنطينية يكون من حقهم الحصول على نفس المدن والمقاطعات التي يستولون عليها من بوتانياتس(٥).

لا غرو في أن ميليسينوس كان ذكيًا بتقديمه هذا العرض السخي للسلاجقة، فقد كان يدرك تمامًا أنهم لن يترددوا في مساعدته وفي التخلي عن بوتانياتس أمام هذا الإغراء

---

(1)Scylitzae,Exoerpta,pp.736-737؛ Attaliatae,Historia, pp.289-291؛Bryennios, Les Quatre Livers, pp. 902-912؛Anna Comnena, Alexiad, pp. 44-45؛ Kaegi, Contribution of Archery, p. 107؛ Cahen, La Premiere Penetration, p. 43.

(٢) نقفور ميليسينوس، ينتمي لأسرة ميليسينوس، وهي أسرة بيزنطية عريقة لمع أفرادها منذ القرن التاسع الميلادي فتولوا مناصب الحكم والقيادة، ونقفور هذا يتصل بهذه الأسرة من ناحية الأم، وفي نفس الوقت ارتبط بنسب مع عائلة كومنين عن طريق زواجه من إيدوكيا Eudokiaأخت الكسيوس.

Bryennios, Les Quatre Livers, p. 921؛ O.D.B.,2, p. 1335.

(٣) جزيرة كوس تقع شمال شرق جزيرة رودس، وزادت أهميتها في القرن الحادي عشر الميلادي، وفي منتصف القرن الثاني عشر الميلادي تولى حكمها نقفوركومنين جد أنا كومنينا.

O.D.B.,1, p. 1150.

(4)Angold, Byz. Empire, p. 96؛Bryennios, Les Quatre Livers, p. 92

Cahen, La Premiere Penetration, p. 43؛ Ostrogorsky, Byz. State, p.308.

رايس، السلاجقة، ص ٤٨.

(5)Laurent, Byzance et Les Origines, p.181.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١،ص ٧٤.

الكبير، وبناء على ذلك الاتفاق فإن كل مدن آسيا الصغرى التي فتحت أبوابها لميليسينوس اضطر إلى تسليمها للسلاجقة، ولذلك فإنه في غضون فترة قصيرة كانت مدن فريجيا Phrygia[١] وجلاتيا Galatia[٢] حتي نيقية وكزيكوس Cyzicus[٣] احتلها السلاجقة[٤].

إلا أن الأمر الذي ينبغي ملاحظته أنه إذا كان السلاجقة قد وصلوا إلى بعض هذه المناطق عن طريق توسعهم أو بمساعدة المتمردين على الدولة البيزنطية، إلا أنهم قد استقروا في بداية الأمر في الريف فقط حول المدن دون أن يستطيعوا دخولها، ولكن مع ميليسينوس دخلوا هذه المدن وأقاموا حامياتهم بداخلها، بل وكان احتلالهم لها احتلالًا نهائيًا، ذلك أنه عندما فشل تمرد ميليسينوس وطلب منهم الانسحاب من هذه المدن رفضوا ذلك، وبما أنه لم يكن يمتلك القوة العسكرية لإجبارهم على تنفيذ رغبته، فقد استقر السلاجقة في هذه المدن[٥].

على أي حال يمكن القول بأن تمرد ميليسينوس قد سلم مدن وسط آسيا الصغرى

---

(١) فريجيا، منطقة جبلية في آسيا الصغرى تقع بين السهول الإيجية والسهل الأوسط، ولها أهمية إستراتيجية كبيرة لمرور العديد من الطرق الهامة بها

لمزيد من التفاصيل:

Ramsay, Historical Geography, p. 180؛ O.D.B.,3, p. 11671.

(٢) جلاتيا، منطقة هامة في آسيا الصغرى تمتد من جبال بافلاجونيا شمالًا حتى بحيرة الملح جنوبًا ومن نهر سنجاريوس إلى الهاليس، حققت أهمية كبيرة لوقوعها على الطرق الحيوية الممتدة من القسطنطينية إلى آسيا الصغرى.

Ramsay, Historical Geography, p. 252؛ O.D.B.,1, p. 816.

(٣) كزيكوس، مدينة على الساحل الجنوبي لبحر مرمرة، وتقع على بداية الطرق المؤدية إلى آسيا الصغرى.

Ramsay, Historical Geography, pp. 119-120؛O.D.B.,1, p. 1640.

رايس، السلاجقة، ص ٤٧، حاشية ٨.

(4)Bryennios, Les Quatre Livers, p. 921؛Laurent, Byzance et Les Origines, p. 181؛ Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 75؛Idem, La Premiere Penetration, p.43؛Laurent, Byzance et Les Origines, p. 181؛ Charanis, Byz. Empire, p.201.

(5)Cahen, La Premiere Penetration, p. 43؛ Laurent, Byzance et Les Origines, p. 181؛ Charanis, Byz. Empire, p. 201.

وغربها للسلاجقة[١]. وتأكدت هذه السيطرة عندما فشلت آخر المحاولات البيزنطية لطرد السلاجقة من نيقية حيث تمكنت القوات السلجوقية من هزيمة الحملة التي أرسلها بوتانياتس لطرد السلاجقة منها سنة (٤٧٢هـ/ ١٠٨٠م)[٢].

على هذا النحو استولى السلاجقة على معظم مدن آسيا الصغرى مستغلين فرصة الحرب الأهلية التي اجتاحت الدولة البيزنطية بعد موقعة مانزيكرت وأدت إلى تبديد طاقاتها السياسية والعسكرية والاقتصادية أيضًا، في وقت كان أعداؤها خاصة السلاجقة يتربصون بها الدوائر، فبدلًا من توجيه هذه الطاقات لقتال السلاجقة، تم تبديدها في الصراع على السلطة والقضاء على المتمردين، حيث كان الوصول للعرش الإمبراطوري لدى هؤلاء المتصارعين أكثر أهمية من الدفاع عن آسيا الصغرى وحمايتها ضد السلاجقة، فعمل كل طرف منهم على كسب ود السلاجقة واللجوء إلى مساعدتهم مهما كانت النتائج، تلك المساعدات التي كان يقابلها مزيد من سيطرة السلاجقة على آسيا الصغرى والاستقرار بها[٣].

صفوة القول، أن البيزنطيين أنفسهم قد ساعدوا على التوغل السلجوقي في آسيا الصغرى، فبدون هذه الفوضى السياسية التي غرقت فيها الدولة البيزنطية، لم يكن في استطاعة السلاجقة الوصول إلى تلك الجهات البعيدة من هذا الإقليم التي وصلوا إليها بصحبة المتمردين، فقد فتحت الحرب الأهلية أبواب آسيا الصغرى للسلاجقة وكانت ثمرتها تأسيس سلطنة سلاجقة الروم[٤]التي اتخذ مؤسسها سليمان بن قتلمش من مدينة نيقية القريبة من القسطنطينية عاصمة لها سنة٤٧٣-٤٧٤هـ/ ١٠٨١[٥].

---

(1)Vryonis, Decline, p. 133.

(2)Turan, Anatolia, p. 235.

(3)Vryonis, Social Basis, p. 165؛ Idem, Decline, p. 103؛ Angold, Byz. Empire,p. 95؛ Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 33؛ Vasiliev, Byz. Empire, I, p. 357.

السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ج١، ١٠٥٠-١١٩٣م، (القاهرة ١٩٦٣)، ص ٨.

(4)Lilie, R.J.,"Twelfth-Century Byzantine and Turkish States",B.F.,16 (Amsterdam 1991), p. 37؛ Anglod, Byz, Empire, p. 97؛Cahen, Turkish Invasion, p. 150.

فايز اسكندر، موقعة ملازكرد، ص ٢٨.

(5)Anna Comnena, Alexiad, p. 129؛ Laurent, Byzance et Les Origines, p. =

ومن هذا المكان أخذت سلطنة سلاجقة الروم في التوسع والامتداد حتى وصلت إلى شواطئ بحر بنطس في الشمال والبحر المتوسط في الجنوب، وفي التوسع غربًا حتي سيطرت على ثلاثة أرباع آسيا الصغرى وصارت عدوا خطيرًا للدولة البيزنطية(١).

وعندما اعتلى الكسيوس كومنين العرش الإمبراطوري سنة ١٠٨١م بدت آسيا الصغرى وكأنها انتقلت نهائيًا إلى أيدي السلاجقة على حد قول فريونس Vryonis(٢)إذ اجتاح السلاجقة أراضيها وهاجموا منطقة بيثينيا ووصلوا إلى مضيق البسفور نفسه عند مدينة دماليس Damalis(٣)،وأصبحوا السادة الحقيقيين لآسيا الصغرى من الفرات شرقًا حتى بحر مرمرة غربًا(٤)، بينما تمثل النفوذ البيزنطي في وجود عدد من الموظفين في هرقلة وموانئ بافلاجونيا وقبادوقيا وكوما Khoma(٥) وطرابيزون وبعض المناطق القليلة الأخرى، هذا بالإضافة إلى وجود الأرمن في منطقة جبل طوروس وطوروس الداخلية(٦) الذين كانوا يدينون بالولاء للدولة البيزنطية(٧).

=

177؛Taeschner, Turks and Byzantine, p. 740.

الحريري، الإعلام والتبيين بخروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق/ سهيل زكار، (دمشق د.ت)، ص ٢٧-٢٨.

(1)Vasiliev, Byz. Empire, I, pp. 357-358.

(2)Vryonis, Decline, p. 114.

(3)Anna Comnena, Alexiad, p. 129؛Chalandon, Essai sur le Regne D'Alexis 1er Comnene (1081-1118), (Paris 1900), pp. 71-72.

(٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص ٧٥.

(٥) كوما، مدينة صغيرة في إقليم فريجيا بالقرب من نهر الميندر على الطريق الممتد بين أعالي نهر الميندر وشرق آسيا الصغرى،

Ramsay, Historical Geography, p. 80؛ Foss, Defenses of Asia Minor,p148.

(٦) جبال طوروس، سلسلة جبال عظيمة تفصل آسيا الصغرى عن غيرها، ومن أشهر جبالها جبل اللكام الذي يطلق أحيانا عليها جميعًا.

لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٣٨، ١٦٠، ١٦٢.

(7)Vryonis, Decline, p.114؛Diehl,Ch.,Byzantium:Greatness and Decline, English Trans. Walford, N., (U.S.A. 1957), p. 205.

ينبغي ملاحظة أنه بالرغم من تحديد النفوذ البيزنطي في هذه الجهات، فإنه من العسير أن نحدد بدقة الممتلكات البيزنطية في هذه الفترة أو في أي وقت أخر أثناء حكم الكسيوس؛ وذلك لأنه حتي المناطق التي سيطر عليها

من هنا كان على الكسيوس ضرورة التصدي لهذا الخطر الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى من عاصمته، فقام ببعض العمليات العسكرية المحدودة لطرد السلاجقة من ضواحي نيقوميديا وإعادة السيطرة على مضيق البسفور-عن طريق شن حرب الكمائن ضدهم التي تمثلت في قيام فرق من الفرسان البيزنطيين بالهجوم المفاجئ ليلاً ثم العودة بسرعة إلى قاعدة انطلاقها- إلا أن هذه المجهودات لم تستمر طويلاً وذلك بسبب التهديد النورماني لسواحل إيطاليا من جهة وازدياد خطر البشناق من جهة أخرى(١).

عند ذلك اضطر الكسيوس إلى توقيع معاهدة صلح مع سليمان بن قتلمش في شهر يونيه ١٠٨١م؛ لضمان أمان الجهة الشرقية-آسيا الصغرى- من ناحية والحصول على مساعدة السلاجقة أثناء قتاله مع النورمان من ناحية أخرى(٢)، وقد نصت هذه المعاهدة على جعل نهر دراكون Drakon-نهر صغير يصب في بحر مرمرة- حدًّا فاصلاً بين الحدود البيزنطية والسلجوقية، وتم منع السلاجقة من عبوره أو حتي الاقتراب من منطقة بيثينيا تحت أي ظرف من الظروف(٣).

وقد اختلفت الآراء حول الطرف الذي بدأ بطلب الصلح فتذكر أناكومنيا، أنه نتيجة لانتصارات الكسيوس على السلاجقة اضطر سليمان بن قتلمش أن يطلب بإلحاح

=

البيزنطيون كانت عرضه للهجوم السلجوقي.

Foss, Defenses of Asia Minor, p. 148.

(1)Anna Comnena, Alexiad, pp. 129-130؛ Chalandon, Alexis 1er Comnene, pp.72-73؛Vryonis,Declinep114,

سميرة يونس، النورمان والدولة البيزنطية، ص ١٠٣.

(2)Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 75؛ Idem, La Premiere Penetration, p. 43؛ Angold, Byz. Empire, p. 112؛

هسي (ج.م) العالم البيزنطي، ترجمة / رأفت عبد الحميد، (القاهرة، ١٩٩٧)، ص ١٥١.

- لقد تم تقديم هذه المساعدة بالفعل فأثناء قتال الكسيوس مع النورمان أرسل إلى سليمان يطلب مساعدته فأرسل له الأخير فرقة عسكرية تألفت من ٧ آلاف فارس ساعدته في إحراز الانتصار على النورمان.

Laurent, Byzance et Les Origines, p. 182؛ Norwich, J.J., Byzantium, TheDecline and Fall, (New York 1996), p. 20.

(3)Anna Comnena, Alexiad, p. 130؛Chalandon, Alexis 1er Comnene, p. 72؛ Vryonis, Decline, p. 114 .

كبير منه معاهدة سلام فوافق الكسيوس على ذلك مسرورًا[١]، ويعتقد شالندو Chalandon في عدم صحة هذه الرواية، ويرى أن مبادرة السلام هذه جاءت من الكسيوس، ويدلل على صحة رأيه: بأنه من غير المحتمل أن يكون نتيجة لهذه النجاحات المحدودة أن يقدم سليمان بن قتلمش على اتخاذ هذه الخطوة الخطيرة[٢].

لا شك أن رأي شالندو هو الأقرب إلى الصواب والمنطق وذلك لأنه لم يكن هناك دافعًا يجعل سليمان بن قتلمش الذي تغمره الحماسة للتوسع ومد حدود دولته الناشئة يطلب الصلح، فهو لم يكن واقعًا تحت أي تهديد أو ضغط، على النقيض من الكسيوس الذي كان يعاني من ضغط النورمان من جهة والوضع المتوتر مع البشناق من جهة أخرى، فكيف يمكنه في وقت واحد أن يقاتل على كل هذه الجبهات، ومن هنا وحتى لا يقع بين شقي الرحى (النورمان- السلاجقة) طلب الصلح مع سليمان بين قتلمش[٣]، فضلاً عن ذلك فإن طلب الصلح هذا كان وسيلة لجأ إليها الكسيوس أكثر مرة مع السلاجقة خاصة عندما كان يتهدد دولته خطر غيرهم[٤]، كذلك ينبغي ملاحظة أن أنا كانت ابنة الكسيوس ومنطقيًا أن تحاول تمجيد أبيها وإظهاره في موقف البطولة وليس في موقف الضعف، ومن هنا أرجعت مبادرة الصلح إلى السلاجقة.

إضافة إلى ما سبق يمكن أن يستشف مما ذكرتهأنا أن الكسيوس قد رضى -ولو مؤقتًا- عما حققه في آسيا الصغرى، فهو لم يكن يهدف من وراء هذه العمليات العسكرية طرد السلاجقة من آسيا الصغرى، وإنما إبعاد خطر تهديدهم المباشر على عاصمته وبث الطمأنينة في نفوس سكانها، الذين أصابتهم هجمات السلاجقة-بعد أن أصبحوا على مقربة منهم- بالفزع والرعب[٥]، وقد نجح الكسيوس في تحقيق ذلك وهو ما تؤكده ابنته أنا التي تذكر أن أباها قد تمكن ليس فقط من إبعاد خطر السلاجقة

---

(1)Anna Comnena, Alexiad, p. 130.

(2)Chalandon, Alexis 1er Comnene, p. 72.

(٣) محمد نجيب زكي الوسيمي، علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية في عهد أسرة كومنين (١٠٨١-١١٨٥م)، رسالة ماجستير غير منشورة- كلية الآداب- جامعة القاهرة، ١٩٨٨، ص ٨١.

(٤) انظر ما يلي، ص

(5)Anna Comnena, Alexiad, p. 129.

عن مضيق البسفور وإنما تمكن أيضًا من طردهم من منطقة بيثينيا حتي حدود نيقوميديا[١].

على أي حال، لم تنجح هذه المعاهدة في حماية آسيا الصغرى من التهديد السلجوقي، إذ انتهز السلاجقة ما قام به الكسيوس أثناء قتاله مع النورمان من استدعاء القوات العسكرية البيزنطية الموجودة في بافلاجونيا وهرقلة وقبادوقيا وكوما، وقاموا بالهجوم على هذه المناطق[٢]، كما أنهم استغلوا عدم قدرة الكسيوس على إجبارهم على تنفيذ هذه الاتفاقية وانشغاله بقتال النورمان، وشنوا هجماتهم على بحر مرمرة ومضيق البسفور، ومما يؤكد ذلك ما ذكرته أنا: من أن الكسيوس أثناء عودته من حملته ضد النورمان قد وجد السلاجقة قد عادوا للهجوم على أراضيه مرة ثانية وأن الساحل الآسيوي لبحر مرمرة أصبح بأيديهم واجتاحوا ساحل بحر إيجة[٣].

وإذا كان الكسيوس قد اعتقد أن بوفاة سليمان بن قتلمش سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م)[٤] قد تخلص من التهديد السلجوقي، إلا أن الواقع لم يكن كذلك، فلم يلبث أن ظهر له مناوئون جدد عملوا على اقتطاع أجزاء من آسيا الصغرى وشجعتهم وفاة سليمان بن قتلمش على الاستقلال بما تحت أيديهم من مناطق ومدن[٥]،

---

(1)Anna Comnena, Alexiad, pp. 129-130؛ (Chalandon, Alexis 1er Comnene, p. 70).

(2)Treadgold, Byz., State, p. 614. Vryonis, Decline, p. 114؛

(3)Anna Comnena, Alexiad, p. 198.

(٤) لقد اتاح صلحه مع الكسيوس مباشرة فتوحاته، فاتجه إلى الجنوب وبعد استيلاءه على إنطاكية فكر في الاستيلاء على مدن الشام وبدأ بمدينة حلب ولكن انتهي الأمر بمقتله على يد تاج الدولة تتش- أخو السلطان السلجوقي ملكشاه وصاحب دمشق- الذي كان يطمع هو الآخر في حلب – بالقرب من حلب.

لمزيد من التفاصيل:

ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص١١٧-١١٩؛ العظيمي، تاريخ العظيمي، ص ٣٦٥-٣٦٦

ابن الاثير، الكامل ج٨، ص ٤٣٥-٤٣٧؛ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، (القاهرة ١٢٨٥)، ج١، ص ٣٨٣-٣٨٤.

Cahen, Pre-Ottoman Turkey, pp. 77-78؛ Idem, La Premiere Penetration, pp. 44-45.

رايس، السلاجقة، ص ٥٢-٥٣.

(٥) لقد اندفع العديد من الأمراء السلاجقة إلى آسيا الصغرى واستولوا على العديد من المدن وعملوا على

بل وهدد بعضهم القسطنطينية ذاتها، وكان من أبرز هؤلاء الأمراء الأمير أبو القاسم الذي عينه سليمان بن قتلمش نائبًا له في نيقية عند رحيله إلى الشرق، وكان رجلاً ماهرًا وطموحًا لم يكتف بإدارته لشئون دولة سليمان بن قتلمش، بل تطلع إلى أكثر من ذلك، فاستغل وفاته وأعلن نفسه سلطانًا على دولته، واتبع سياسة سلفه في الهجوم على الأراضي البيزنطية[١]،فقام بإرسال قواته للهجوم على منطقة بيثينيا حتى بحر مرمرة، مما اضطر الكسيوس إلى إرسال بعض القوات العسكرية للتصدي لهذا الهجوم، وعندما اشتدت حدة هجماته على الأراضي البيزنطية أرسل الكسيوس جيشًا كبيرًا بقيادة تاتيكيوس Taticius[٢] لقتاله، إلا أنه بعد أن اشتبك مع إحدى الفرق السلجوقية خارج نيقية، اضطر للانسحاب صوب بازيليا Basileia-بالقرب من نيقية-واتجه منها بعد قليل إلى نيقية وسط الهجوم السلجوقي عليه[٣].

لم تكن هذه الحملة لتثني أبا القاسم عن أهدافه، فقد كان مصممًا على التحكم في ساحل بحر مرمرة والاستيلاء على جزره، ومن هنا قام بعد استيلائه على مدينة كيوس Cius (Kios)-الواقعة على ساحل هذا البحر- بتشييد أسطول هناك بمساعدة سكانها[٤]، واستمر في مواصلة هجومه، فأرسل الكسيوس حملة بحرية بقيادة القائد

=

الاستقلال بعد وفاة سليمان بن قتلمش وكان من هؤلاء الأمراء الدانشمنديون الذين أقاموا دولتهم في شمال ووسط الأناضول، ومنكوجك، وسالتوق (صندق) وكذلك تنجارميش وقراتقين (أنظر الخريطة رقم١)

لمزيد من التفاصيل:

ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ٣٢٨؛ ميخائيل الكبير، تاريخ ميخائيل، ج٣، ص١٤٢-١٤٣.

Kafesoglu, Seljuks, p. 67؛ Turan, Anatolia, pp. 236-237.

Cahen, Pre-Ottoman Turkey, pp. 108-109؛ Vryonis, Decline, pp. 115-118.

على المحيميد، الدانشمنديون، ص ٢٨، ٣٢

(1)Anna Comnena, Alexiad, p. 201.

(٢) تاتيكيوس، أحد الأمراء السلاجقة ودخل في خدمة الدولة البيزنطية.

Cahen, La Premiere Penetration, p. 50.

(3)Anna Comnena, Alexiad, pp. 201-20؛ Chalandon, Alexis 1er Comnene, p. 100.

(4)Anna Comnena, Alexiad, p. 202؛ Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 80؛ Idem, La Premiere Penetration, p. 50

مانويل بوتوميتس Manuel Boutoumits لقتاله، بل وأمر تاتيكيوس بشن هجوم عليه من ناحية البر، إلا أن أبا القاسم استطاع التصدي لهذا الهجوم البحري والبري بكل قوة، وبالرغم من أن هذه الحملة قد انتهت بقتل وأسر عدد كبير من رجاله، وانسحابه إلى نيقية إلا أنها فشلت في القضاء عليه أو الاستيلاء على عاصمته(١).

نتيجة لفشل الكسيوس في القضاء على أبي القاسم ومتاعبه مع البشناق أرسل إليه يطلب منه إيقاف اعتداءاته على الأراضي البيزنطية، والتوصل إلى اتفاق بين الطرفين، فوافق أبو القاسم على طلب الكسيوس(٢).

ومن الواضح أن الظروف التي أحاطت بأبي القاسم ووضعته في موقف حرج هي التي اضطرته إلى الموافقة على عرض الكسيوس، فقد تمكنت قوات الكسيوس من هزيمته وأجبرته على الانسحاب إلى نيقية، وأرسل السلطان ملكشاه ضده حملة ضخمة-تتألف من ٥٠ ألف فارس على حد قول أناكومنينا- بقيادة الأمير السلجوقي برسق Bursuq (Prosouch) (٣)، والتي حاصرت عدد من المراكز القوية التي كان يحكمها بعض الأمراء التابعين لأبي القاسم، بل وأوشكت على الاقتراب من العاصمة السلجوقية نيقية، عندئذٍ خشي أبو القاسم أن يتحالف هذا الأمير مع الإمبراطور الكسيوس، خاصة وأن ملكشاه قد حاول أكثر من مرة التحالف مع الكسيوس ضد سلاجقة الروم(٤)، مما سيؤدي بالضرورة للقضاء عليه، ومن ثم وافق على عرض

---

(1)Anna Comnena, Alexiad, pp. 203-208؛ Chalandon, Alexis 1er Comnene, p.100

(2)Anna Comnena, Alexiad, p. 203.

عبدالغني محمود عبد العاطي، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور الكسيوس كومنين ١٠٨١-١١١٨م، (القاهرة ١٩٨٣)، ص١٩١.

(3)Anna Comnena, Alexiad, pp. 201-203؛

- برسق أحد أمراء السلطان ملكشاه، وكان شحنه بغداد في عهد طغرلبك وقربه ملكشاه إليه وأسند إيه العديد من المهام، وقيل أنه هو الذي قتل منصور ابن قتلمش أخو سليمان.

Cahen, La Premiere Penetration, p. 44.

(٤) عمل السلطان ملكشاه أكثر من مرة على كسب الكسيوس ضد سلاجقة الروم ومنها محاولة تلت وفاة سليمان بن قتلمش ورغم أنه فشل في تحقيق هدفه إلا أنه لم ييأس فعاد الكره من جديد وأرسل برسق مرة أخرى يطلب التحالف.

=

الكسيوس بالصلح حتى يزول هذا الخطر، كما أن التحالف مع الكسيوس سيمكنه من الاستعانة بالقوات البيزنطية للتصدي لحملة ملشكاه[١].

ومن هنا لم يكن أبو القاسم ليوافق على هذا الصلح لولا هذه الظروف التي كان يمر بها، وهذا ما أكدته أناكومنينا، بقولها: «إنه (أبو القاسم) قد رحب بالسلام مع الإمبراطور دون تردد تحت الضرورة الملحة»[٢].

على أن الأمر الذي ينبغي ملاحظته أن هذه الموافقة لم تكن تعني زوال خطر أبي القاسم على الدولة البيزنطية أو أن الكسيوس قد أمن جانبه، والذي كان يعرف خبايا الرجل ونواياه، وبذلك استغل الإمبراطور فترة وجود أبي القاسم في القسطنطينية وما أحاط به من مظاهر الحفاوة وما أغدقه عليه من أموال وهدايا، وقام ببناء حصن كيفتوت Civetot (كيبوتوس Kibotos)[٣] على بحر مرمره؛ لحماية هذه المنطقة الحيوية من هجوم أبي القاسم، وأمر الكسيوس القائد المكلف بهذا العمل بإتمام عملية البناء في سرية تامة[٤].

وصدق حدس الكسيوس، فلم يلبث أبو القاسم أن عاود الهجوم مرة أخرى على الأراضي البيزنطية، ففي سنة (٤٨٢-٤٨٣هـ/١٠٩٠م) أخذ في الاستعداد للقيام بهجوم شامل على منطقة نيقوميديا، الأمر الذي دفع الكسيوس إلى إرسال عدة فرق من

=

لمزيد من التفاصيل:

Anna Comnena, Alexiad, pp. 200-202؛ Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 79؛ Idem, La Premiere Penetration, p. 44.

(١) لقد حدث هذا بالفعل، فعندما حاصرت قوات برسق نيقية، بعد ذلك بقليل، أرسل أبو القاسم يطلب مساعدة الكسيوس، الذي أسرع بتلبية طلبه وأرسل إليه عددًا من أفضل الفرق العسكرية المتاحة لديه.

Anna Comnena, Alexiad, p. 205؛ Chalandon, Alexis 1er Comnene, p. 110.

(2)Anna Comnena, Alexiad, p. 203؛ (Chalandon, Alexis 1er Comnene, p. 110؛ Kafesoglu, Seljuks, p. 50).

(٣) كيفتوت، حصن يقع على الشاطئ الجنوبي لخليج نيقوميديا ويبعد ٥٠كم غرب مدينة أزميت الحالية.

France, Victory, p. 93.

(4)Anna Comnena, Alexiad, pp. 203-204 ..

لمزيد من التفاصيل عن تحصينات الكسيوس في آسيا الصغرى:

Foss, Defenses of Asia Minor, pp. 157-166.

الفرسان البيزنطيين للدفاع عن هذه المنطقة[1].

لقد ظل أبو القاسم يشكل خطرًا على الدولة البيزنطية حتى وفاته سنة (٤٨٤-٤٨٥هـ/١٠٩٢م)، عندئذٍ اعتقد الكسيوس أنه بإمكانه الاستيلاء على نيقية بكل سهولة، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، حيث رفض بولداجي Buldaji (بولخاسيس Poulchases)-شقيق أبي القاسم الذي تولي حكم نيقية عند ذهاب أخيه إلى السلطان ملكشاه طالبًا عفوه- ما عرضه عليه الكسيوس من أموال وهدايا في مقابل تسليمه المدينة وسلمها إلى قليج أرسلان الأول بن سليمان بن قتلمش بعد عودته[2].

وإذا كان قليج أرسلان الأول قد انشغل في بداية عهده بتنظيم أمور دولته[3]، إلا أن التهديد السلجوقي ظل مستمرًا على الدولة البيزنطية خاصة منأتباعه ومن بينهم الخانس Elkhanes الذي استولى على مدن أبولنياس Apollonis[4] وكزيكوس وبوامنينون Poimanenon[5]، ونهب كل مقاطعات بحر مرمره، الأمر الذي دفع

---

(1)Anna Comnena, Alexiad, p. 232-233.

عبد الغني عبد العاطي، السياسة الشرقية، ص ٢٩٢-٢٩٣.

(2)Anna Comnena, Alexiad, pp. 209-210؛ Cahen, Pre-Ottoman Turkey, pp. 80-81؛Idem, La Premiere Penetration, p. 52.

- بعد مقتل سليمان بن قتلمش أرسل أبناؤه إلى السلطان ملكشاه وظلوا هناك حتى وفاته، عندئذ استغل قليج أرسلان الأول، الفوضى التي عمت الدولة السلجوقية بسبب الخلاف على وراثة العرش وهرب إلى آسيا الصغرى.

Turan, Anatolia, pp. 236-237؛ Kafesoglu, Seljuks, p. 67؛

Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 81؛ Idem, La Premiere Penetration, p. 52.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن طبيعة العلاقات بين الكسيوس وقليج أرسلان الأول في بداية حكمه:

عبد الغني عبد العاطي، السياسة الشرقية، ص١٩٤.

(٤) أبولنياس، هي Apolyont الآن، وهي مدينة في بيثينيا، توجد على بحيرة تعرف بأسمها، وظهر أسمها أول مرة في المصادر التاريخية في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، كقلعة قوية تربطها عدة طرق بمدينتي ساردیس وبرجامون.

Ramsay, Historical Geography, pp. 123-126؛ O.D.B.,1, p. 137.

(٥) بوامنينون، هي Eski manyas الحالية، وهي مدينة حصينة تقع جنوب بحر مرمرة على بعد ٣٥ ميلاً جنوب مدينة كزيكوس.

لمزيد من التفاصيل

=

الكسيوس إلى إرسال حملة بحرية بقيادة ألكسندر إيفوربينوس Alexander Euphorbenus؛ للتصدى له، وقد بدأ ألكسندر عملياته العسكرية بفرض الحصار على مدينة أبولنياس، عندئذٍ جاءت إمدادات إلى الخانس مما اضطر القائد البيزنطي إلى الانسحاب، فضاعف الخانس من حدة هجومه، ونتيجة لذلك أرسل إليه الكسيوس قوة برية بقيادة أبوس Opus استطاعت هزيمته والاستيلاء على مدن أبولنياس وكزيكوس(١).

لم يمثل قليج أرسلان وحده خطر على الدولة البيزنطية، بل كذلك كان أتباعه، ومن هؤلاء كان تراخاس Tzachas(جكا Chaka)(٢) من أشد أتباع قليج أرسلان الأولخطورة على الدولة البيزنطية، فقد هددها لفترة طويلة في وقت كانت تعاني فيه من العديد من الصعوبات في أقاليمها الأوربية، فقد استولى هذا الأمير على مدينة سميرنا Smyrna(٣)، وبمساعدة سكانها نجح في إقامة أسطول جعل مرساته ميناء كلازمـوني Clazomenae على خليج سميرنا -والذي كان قد استولى عليه منذ

=

Ramsay, Historical Geography, pp. 157-263؛ O.D.B.,3, pp. 1690-1691.

(1)Anna Comnena, Alexiad, pp. 210-211؛ Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p.81؛ Idem, La Premiere Penetration, p.52؛ Vryonis, Decline, p. 115.

(٢) تزاخاس، أمير سلجوقي من الأمراء الذين أغاروا على آسيا الصغرى بعد موقعة مانزيكرت، لكنه وقع في أسر السلاجقة، ثم تم تحريره بعد ذلك وقضى فترة شبابه في القسطنطينية، حيث وصل إلى مكانة عالية في عهد نقفور بوتانياتس، لكن عندما اعتلى الكسيوس العرش جرده من ممتلكاته فرحل إلى قومه في آسيا الصغرى مصممًا على الانتقام.

Anna Comnena, Alexiad, p. 236؛ Chalandon, Alexis 1er Comnene, p. 126؛ Vasiliev, Byz. Empire, 2, p. 384.

(٣) سميرنا أو أزمير Izmir الحالية تقع على ساحل بحر إيجة الأسيوي، وكانت قاعدة بحرية هامة، أحرزت أهمية كبيرة كميناء لإفيسوس، وجعلها الكسيوس قاعدة لعملياته في آسيا الصغرى.

لمزيد من التفاصيل:

Ramsay, Historical Geography, pp. 107-108, Pococke, R., A, Description of The East and Some Other Countries, 2, Observation on the Island of the Archipelago, Asia Minor, Thrace, Greece and Some Other Parts of Europe, (London 1845), pp. 34-39؛ O.D.B.,3, p. 1919-1920.

قليل-[1]،ومن هذا الميناء توجه إلى مدينة فوكيا Phocaea[2] التي نجح في الاستيلاء عليها، ومن هذه المدينة أرسل إلى البوس Alopus حاكم جزيرة مدلي (Mitylen ميتلين)[3] مهددًا إياه الانتقام إذا لم يتخل عنها، الأمر الذي أفزع هذا الحاكم فرحل ليلاً إلى القسطنطينية تاركًا جزيرته، فانتهز تراخاس هذه الفرصة واستولى عليها، بل واستطاع أيضًا الاستيلاء على جزيرتي خيوس Chios[4] وساموس Samos[5] وغيرهما، وتمكن من هزيمة الحملة البحرية التي أرسلها الكسيوس بقيادة القائد نيقتاس كستمونيتس Nicetas Castamonits للتصدي له واستولى على سفنها[6].

عندئذٍ اضطر الكسيوس إلى إرسال حملة بحرية أخرى بقيادة قنسطنطين دلاسينوس Constantine Dalassenus الذي قام بمجرد وصوله إلى جزيرة

---

(1)Anna Comnena, Alexiad, p. 233؛Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 81؛ Idem, La Premiere Penetration, p. 52؛ Chalandon, Alexis 1er Comnene p.127.

(٢) فوكيا (فوجه) وهي فوجيه، مدينة قديمة تقع على المدخل الشمالي لخليج سميرنا بالقرب من مصب نهر الهرماس، وكانت تحل محل سميرنا كميناء لتصدير تجارة وادي الهرماس عندما يتعرض للخطر.

Ramsay, Historical Geography, pp. 60,62؛ O.D.B.,3, p. 1665.

(٣) جزيرة مدلي، جزيرة كبيرة تقع شمال شرق بحر إيجه، كانت قديمًا تعرف باسم ليسبوس Lesbos، ثم نسبت إلى اكبر مدينة في الجزيرة وهي مدينة ميتلين، واحتلت أهمية كبيرة في القرن السابع قبل الميلاد.

بنيامين التطيلي، رحلة ابن يونه الأندلسي إلى بلاد الشرق الإسلامي **٥٦١-٥٦٩هـ**، ترجمة/ عزرا حداد، (بيروت **١٩٩٦**)، ص **٨٣**، حاشية **٦**.

O.D.B.,2, p. 1219.

(٤) خيوس، جزيرة في شرق بحر إيجة بالقرب من ساحل آسيا الصغرى.

O.D.B.,1, p. 423.

(٥) ساموس، جزيرة في بحر إيجه بجانب ساحل البحر الغربي لآسيا الصغرى، وفي القرن العاشر الميلادي استخدمت كقاعدة حربية لكل من المسلمين والبيزنطيين.

O.D.B.,3, p. 1838.

بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين التطيلي، ص **٨٤**، حاشية **٣**

(6)Anna Comnena, Alexiad, pp. 333-334؛ Chalandon, Alexis 1er Comnene,p.126؛ Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 81؛ Idem, La Premiere Penetration, p.52؛ Charanis, Byz. Empire, p. 213.

خيوس بفرض الحصار عليها محاولًا الاستيلاء عليها قبل وصول تراخاس من مدينة سميرنا، وقصف أسوارها، إلا أنه فشل في السيطرة على قلعتها، وبعد مجيء تزاخاس والاشتباك مع هذا القائد في بعض العمليات العسكرية عند أسوار القلعة، أرسل تزاخاس إلى قنسطنطين دلاسينوس عارضًا الصلح[1]. وترى أنا كومنينا، أن السبب الذي دفع تزاخاس إلى طلب الصلح من القائد البيزنطي «أنه فقد كل أمل في تحقيق الانتصار بعد أن رأى شجاعة خصمه واستعداده لمواجهة الخطر»[2].

وإذا كان هذا التفسير يحمل في طياته بعض الوجاهة من الناحية النظرية -خاصة بعدما تحطمت قوات تزاخاس وأصبح في وضع حرج-إلا أن الواقع كان مختلفًا تمامًا؛ وذلك لأن الأحداث التي تلت هذا لا تشير إلى أي ضعف أو استسلام من جانب تزاخاس، الذي سارع بالرحيل إلى سميرنا، وأخذ يعمل على بناء أسطول جديد أضخم من أسطوله السابق، وبعد إتمام تشييده اجتاح به كل مدن الساحل واستولى على العديد منها، ولم يكتف بذلك، بل اتصل بالبشناق، واتفق معهم على القيام بحملة مشتركة ضد الدولة البيزنطية، فيقوم هو بحصار القسطنطينية بحرًا، بينما يهاجمها هؤلاء برًا، بل وحاول إقناع الجند المرتزقة الأتراك في الجيش البيزنطي بالوقوف إلى جواره، ووعدهم بالكثير من الأموال والعطايا إذا انضموا إليه وتركوا العمل لصالح الدولة البيزنطية[3].

بهذا يكون من العبث الاعتقاد بأن طلب الصلح هذا كان يأسًا أو استسلامًا من جانب تراخاس، ذلك الرجل العنيد الذي كان من الصعب أن يستسلم دون أن يكون وراء هذا (الخضوع الظاهري) هدف آخر خفي، وهو الأمر الذي لم تدركه أناكومنينا، ورضيت بهذا التفسير السطحي البسيط، إذ كان طلب الصلح هذا خدعة هدف هذا الأمير من ورائها كسب الوقت لإعداد قوات جديدة وحشدها بدلًا من قواته التي تحطمت.

---

(1)Anna Comnena, Alexiad, pp. 334-335.

(2)Anna Comnena, Alexiad, p. 335.

(3)Anna Comnena, Alexiad, pp. 251-252؛ Chalandon, Alexis 1er Comnene, p. 127؛ Ostrogorsky, Byz. State, p.319؛ Angold, Byz. Empire, p. 110؛ Franzius,Byz. State, p.303

المتولي تميم، البشناق والبيزنطيون، ص١٢٢-١٢٣.

على أي حال قد زاد خطر تراخاس على الدولة البيزنطية بعد تحالفه مع البشناق، الأمر الذي وضع الكسيوس في وضع حرج للغاية خاصة وأن الشتاء في ذلك العام (٤٨٣-٤٨٤هـ/ ١٠٩٠-١٠٩١م)، كان قارس البرودة وأعاقت الثلوج حشد القوات العسكرية البيزنطية وإبحارها، وأمام هذا التهديد أرسل الكسيوس إلى القيصر نقفور ميليسينوس في الأقاليم الأوربية طالبًا حشد القوات العسكرية، ليس فقط من المحاربين وإنما أمره بتجنيد قوات جديدة من الشعوب الخاضعة للدولة البيزنطية لمواجهة هذا الخطر، وذهب الكسيوس بنفسه إلى جبهة القتال، وأخذ يشجع قواته على التصدي للعدو بكل قوة(١).

وبالرغم من نجاح الكسيوس في إجبار تراخاس على رفع الحصار البحري واتجاهه نحو البشناق ونجاحه أيضًا في هزيمتهم(٢)، إلا أن كل هذه المجهودات لم تضعف تراخاس أوتفلح في إثنائه عن طموحاته، بل تمادى في سياسته تجاه الدولة البيزنطية واتخذ لقب الإمبراطور، واستقر في سميرنا التي اعتبرها بمثابة عاصمة لدولته الناشئة، وأخذ يعد الأسطول لمعاودة الهجوم من جديد على جزر بحر إيجة والوصول إلى القسطنطينية متحديًّا الكسيوس نفسه(٣).

لذلك أصرَّ الكسيوس على ضرورة طرده من سميرنا ومن كل المناطق التي استولى عليها والقضاء عليه، فأرسل ضده حملتين: إحداهما برية بقيادة يوحنا دوقاس John Ducas–شقيق زوجته–، والأخرى بحرية بقيادة قنسطنطين دلاسينوس –السالف الذكر–، وبعد العديد من المعارك والهجوم البري والبحري الذي استمر عدة شهور دون انقطاع، استطاعت القوات البيزنطية إحراز بعض الانتصارات عليه واسترداد جزر مدلي، ساموس، خيوس، وعدة جزر أخرى(٤).

---

(1)Anna Comnena, Alexiad, pp. 251-252.

(٢) لمزيد من التفاصيل

Anna Comnena, Alexiad, pp. 251-252؛Angold, Byz. Empire, pp. 110-111.

المتولي تميم، البشناق والبيزنطيون، ص١٢٤-١٢٥.

(3)Vasiliev, Byz. Empire, 2, p. 384.Anna Comnena, Alexiad, p. 269؛

(4)Anna Comnena, Alexiad, pp. 270-272؛Angold, Byz. Empire, p. 112؛ Franzius, Byz. State, p.303؛ Vasiliev, Byz. Empire, 2, p. 384.

لكن بالرغم من ذلك فإن هذه الضربات لم تقض تمامًا على تزاخاس، عند ذلك أدرك الكسيوس فشل الجهود العسكرية في إزالة خطره، فلجأ إلى سلاح المكيدة والخداع فأثار قليج أرسلان الأول –صهر تزاخاس- ضده، فخرج لقتاله في نفس الوقت الذي هاجمته القوات البيزنطية من ناحية البحر، وانتهى الأمر بقتل تزاخاس على يد قليج أرسلان الأول[1].

على هذا النحو تخلص الكسيوس من تزاخاس الذي هدد الدولة البيزنطية لفترة طويلة، وأصاب البيزنطيين بالفزع والرعب، إلا أن ذلك لم يكن يعنى زوال الخطر السلجوقي على الدولة البيزنطية، إذ أنه لم يلبث أن ظهر أمراء آخرون ساروا على نهج تزاخاس وأخذوا يشنون هجماتهم على الأراضي البيزنطية[2].

ومما يدل على ذلك ما قام به الكسيوس من إنشاء العديد من الحصون للتصدي لهذه الهجمات، ومن هذه الحصون حصن أقامه سنة (٤٨٦-٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) جنوب مدينة ميلتوس Miletos[3]؛ لحماية منطقة بحر إيجة من الهجوم السلجوقي، وحصن آخر أقامه سنة (٤٨٧-٤٨٨هـ/١٠٩٥م) عند مدينة نيقوميديا[4].

بيد أن الاجتياح السلجوقي لآسيا الصغرى الذي تلى موقعة مانزيكرت، وجعل من السلاجقة القوة المهيمنة والمحركة للأحداث في آسيا الصغرى-تلك البقعة الغالية على الدولة البيزنطية- كان من الصعب إن لم يكن مستحيلاً التصدي له بمثل هذه الأعمال الدفاعية البسيطة، ومن هنا رأى الكسيوس ضرورة اتخاذ خطوة أكثر جرأة وفعالية ضد السلاجقة الذين أصبح كل همهم ابتلاع أراضي آسيا الصغرى وتهديد عاصمته نفسها. وإيمانًا منه بعدم قدرته على حل هذه المشكلة المعقدة -التي تفوق قدراته- بمفرده، اتجه صوب الغرب الأوربي يطلب المساعدة ضد السلاجقة في مجمع

---

(1)Anna Comnena, Alexiad, pp. 274-275؛ Cahen, La Premiere Penetration, p. 52؛ Turan Anatolia, p. 238؛Vasiliev, Byz. Empire, 2, p. 358.

(2)Idem, La Premiere Penetration, p. 52.Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 81؛

(٣) ميلتوس، مدينة على ساحل بحر إيجة احتلها السلاجقة بعد مانزيكرت لفترة قصيرة ثم استردها البيزنطيون بعد ذلك.

O.D.B.,2, pp. 1372-1373.

(4)Foss, Defenses of Asia Minor, p. 149, 157؛Angold, Byz. Empire, p. 112 .

بياكنزا[1]،تلك المساعدة التي أكدها برانارد أف بالسين Bernold of Blasienبقوله: «... إنه خلال انعقاد مجمع بياكنزا وصلت سفارة من إمبراطور القسطنطينية، يتوسل ويتضرع فيها إلى سيدنا البابا، وإلى كل المؤمنين أن يقدموا له المساعدة ضد الكفار للدفاع عن كنيستنا المقدسة التي حطمها الكفار الذين جعلوا من أنفسهم سادة على أراضيه ووصلوا حتى أسوار القسطنطينية»[2].

إلا أن فريقًا من الباحثين المحدثين ويأتي على رأسهم شالندو ينكرون طلب الكسيوس لهذه المساعدة، ويعتمدون في رأيهم هذا على أن العام الذي عقد فيه هذا المجمع كان الموقف قد تحسن بشكل كبير داخل الدولة البيزنطية بوجه عام، وعلى جبهة آسيا الصغرى بوجه خاص، وبهذا لم يكن الكسيوس في حاجة إلى تقديم هذه الالتماسات للغرب الأوربي[3].

مما لا شك فيه أن هؤلاء الباحثين قد أساءوا فهم موقف الكسيوس، حقيقة أن الوضع في الدولة البيزنطية في ذلك الوقت كان أقل خطورة، ولكن ألم يكن الكسيوس في ذلك الوقت في حاجة ماسة إلى إعادة الأراضي البيزنطية المحتلة في آسيا الصغرى؟، لقد استطاع بالفعل صد عدة هجمات للسلاجقة، لكن لم يتغير من الأمر شئ فلا يزال السلاجقة خطرًا قائمًا وعدوًا جاثمًا على صدر الدولة البيزنطية، وكل ما قام به الكسيوس حتى الآن مجرد إجراءات دفاعية، ولم يقم بخطوة واسعة نحو استرداد آسيا

---

(١) فايز اسكندر، موقعة ملازكرد، ص ٢٥؛ جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين، ص ١٥٠.

- لمزيد من التفاصيل حول مجمع بياكنزا:

Duncalf, F., "The Councils of Piacenza and Clermont", in: Setton, K.M & Baldwin, M.W. (eds), A History of The Crusades, I, (Philadelphia 1955), pp. 220-252.

(٢) نقلاً عن:

Charanis, P., "Byzantium, The West and the Origin of the Frist Crusade" B, 19 (1949), pp. 28-29.

(3)Chalandon, Alexis 1er Comnene, pp. 155-159؛ Charanis, Byzantium, p. 25. Idem, "Amis of the Medieval Crusades and How They were Viewed by Byzantium" Ch. H., 12 (1952), p. 126.

الصغرى، التي كان من الصعب عليه أن يتركها فريسة في أيدي السلاجقة[١].

وكان هذا الوقت مناسبًا -من وجهة نظر الكسيوس- لطلب المساعدة، فإذا كانت الصعوبات التي واجهت دولته في الأقاليم الغربية قد أعاقته طيلة الخمسة عشر عامًا الماضية عن القيام بهذه الخطوة، إلا أنه قد تمكن في ذلك الوقت من إزالة معظم هذه الصعوبات بعد أن خاض سلسلة من المعارك ضد أعداء الدولة البيزنطية في الغرب الأوربي، وأقام علاقات طيبة مع البابا أوربان الثاني، وأصبح مستعدًا لشن هجوم ضد السلاجقة لاسترداد آسيا الصغرى، خاصة بعد أن انشغل السلاجقة بالصراع فيما بينهم[٢].

ولكن تحقيق ذلك الهدف لم يكن بالأمر الهين، وإنما كان يحتاج إلى جيش ضخم، في الوقت الذي لم يكن بإمكان الكسيوس إعداد مثل هذا الجيش، خاصة وأن آسيا الصغرى التي تعد مصدر إمداد الدولة البيزنطية بالقوة البشرية قد سادتها الفوضى وسقط معظمها في أيدي السلاجقة، كما أنه لم تتوافر لديه الأموال الكافية لإعداد جيشًا ضخمًا للقيام بهذا العمل، ومن هنا أرسل الكسيوس سفراءه إلى بياكنزا[٣].

ويرى مونرو Munro أن وجود هذا الموضوع ضمن جدول أعمال مجمع بياكنزا، وحثُّ البابا أوربان المشاركين على تقديم المساعدة للدولة البيزنطية دليل واضح على هذا الاستدعاء الذي ذكره برنارد -كما أن الإشارات إلى القسطنطينية والإمبراطور اليوناني (البيزنطي) في خطبة البابا أوربان الثاني في مجمع Clermont كما ذكره روبرت الراهب Robert The Monk، وفوشيه الشارتري، وجيبرت النوجاني Guibert

---

(1)Charanis, Byzantium, The West , p. 30؛ Idem, Amis of the Medieval Crusades, p. 26.

(2)Norwich, Byzantium, p. 30.Charanis, Byz. Empire, pp. 218-219؛

عبد الغني عبد العاطي، السياسة الشرقية، ٢٠٣؛رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١، ص١٢٩.

(3)Norwich, Byzantium, p. 31؛ Brundage, J.A., Crusades, A Documentary Survey, (London 1962), p. 15.

هسي، العالم البيزنطي، ص١٥١.

عامرة علي عبد اللطيف الحمد، الإمبراطورية البيزنطية والأمراء الصليبيون، دراسة تطبيقية في ضوء العلاقة بين الإمبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية الصليبية في عهد الإمبراطور الكسيوس كومنين (١٠٩٨-١١١٨م)، (القاهرة ١٩٨٠)، ص٤٧.

of Nogent-، كلها تؤكد أن الكسيوس طلب المساعدة في بياكنزا[١]، كما أن جعل مدينة القسطنطينية ذاتها ملتقى للجيوش الصليبية دليل على ارتباط الحركة الصليبية بالكسيوس كومنين[٢].

على ذلك يمكن القول أن الكسيوس قد استنجد فعلاً بالغرب الأوربي لطرد السلاجقة في آسيا الصغرى، خاصة وأن الأباطرة البيزنطيين منذ موقعة مانزيكرت قد رسخ في أذهانهم مبدأً أساسيًا وهو أن استعادة الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى عمل يصعب عليهم أن يحققوه بمفردهم، وإنما يمكنهم ذلك بمساعدة حلفاء لهم[٣]، ومن ثَمَّ فإنه منذ ذلك الوقت والأباطرة البيزنطيون لا ينقطعون عن طلب هذه المساعدة على كافة المستويات من الغرب الأوربي، فقد أرسل ميخائيل السابع إلى البابا جريجوري السابع Greogory VII (١٠٧٣-١٠٨٥م) يطلب مساعدته لإنقاذ الدولة البيزنطية وأراضيها في آسيا الصغرى من السلاجقة، ووعد البابا بإعادة الوحدة الدينية بين الكنيستين الشرقية والغربية[٤].

وبهذا لم يكن أمرًا غريبًا أن يطلب الكسيوس هو الآخر المساعدة الغربية، فأرسل إلى بياكنزا لتحقيق ذلك، وكان هذا الطلب هو السبب المباشر الذي فجر سلسلة الأحداث التي أدت إلى الحملة الصليبية الأولى[٥] وشن حرب ضد العالم الإسلامي

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول خطبة أوربان الثاني في كليرمونت:

فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة، ص٣٢-٣٣.

Munro, D.C., "The Speech of Pope Urban II at Clermont", A.H.R., II (1906), pp. 231-242؛ Idem, "Papal Proclamtion of The Crusade" In: Brundage, J.A. (ed), Crusades, motives and Achievements, (U.S.A. 1966).pp. 9-11.

(2)Munro, D.C., "Did the Emperor Alexius I Ask for Aid at the Council of Piacenza?" A.H.R., 27 (1922), pp. 732-733.

(3)Charanis, Byzantium, The West, p. 17.

(٤) لمزيد من التفاصيل:

Cowdrey, H.E.J., "The Gregorian Papacy, Byzantium and the Frist Crusade". B.F., (1988), pp. 153-156.Charanis, Byzantium, The West, pp. 20-23.

عادل زيتون، العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، (دمشق ١٩٨٠)، ص٨٢.

(5)Riley-Smith, J., The Crusades, A Short History, (London 1987), p. I؛ Wise,

استمرت أكثر من قرنين من الزمان، أدت إلى استنزاف طاقاته البشرية والمادية، وساهمت بقدر كبير في تدهور أوضاعه في آواخر العصور الوسطى.

ولكن كيف تحوَّل هذا الطلب من الرغبة في المساعدة العسكرية إلى الدعوة لحرب صليبية؟

لقد رأى الكسيوس أنه من غير المُجْدي أن يبحث عن إمدادات من الغرب الأوربي لإنقاذ الدولة البيزنطية وطرد السلاجقة من آسيا الصغرى، دون أن يربط ذلك بشيء يهم مسيحي الغرب، وبحث عن ذلك فوجد ضالته المنشودة في فكرة إنقاذ المسيحيين والأماكن المقدسة في الشرق من اضطهاد المسلمين(١). وأخذ سفراؤه في مجمع بياكنزا يرسمون صورة مظلمة عن معاناة المسيحيين وكنائسهم في الشرق على أيدي المسلمين(٢).

وأكدت ذلك المصادر اللاتينية واليونانية على حد سواء، ومن ذلك حولية يونانية بعنوان «Synopsis Chronike»، والتي كانت أكثر دقة من غيرها؛ حيث ميزت بين الدوافع الظاهرية والحقيقية للإمبراطور البيزنطي لطلب المساعدة فذكرت: «كان من المستحيل بالنسبة له -الكسيوس- أن يشن حربًا بمفرده، ومن هنا رأى ضرورة استدعاء الإيطاليين كحلفاء له، وحتى ينجح في تحقيق ذلك فكر ببراعة، فوجد ذريعة وهي أن هذه الأمة لا تحتمل أن تكون السيطرة على أورشليم -بيت المقدس- للفرس -الأتراك- فاستخدم تلك الذريعة، وبإرسال السفراء إلى أسقف روما القديمة وحكام تلك الجهات... استطاع أن يكسب عدد غير قليل منهم...»(٣).

بيد أن هذا الطلب سرعان ما تحول من مساعدة عسكرية إلى دعوة لحملة صليبية في الغرب الأوربي ضد مسلمي الشرق، وهو أمر لم يكن يتوقعه الكسيوس أو يرغب

=

T., The Wars of The Crusades 1096-1291, (London 1978), p. 31

(١) ناقش كاهن بالتفصيل قضية اضطهاد المسلمين للمسيحيين في الشرق وأكد على عدم صحتها. لمزيد من التفاصيل:

Cahen, Introduction, pp. 6-30.

(2)Cahen, Introduction, pp. 15-16.

(3)Charanis, P., "A Greek Source on The Origin of the Frist Crusade", Sp., 24 (1949), p. 93؛ (Idem, Byzantium, The West, pp. 33-34).

فيه؛ فتحرير الأراضي المقدسة لم يكن يهم السياسة البيزنطية في شيء، وإنما كان حجةً لجأ الإمبراطور البيزنطي إليها ليضمن الحصول على مساعدة البابا أوربان الثاني في تجنيد قوات عسكرية تعمل في صفوف الجيش البيزنطي من أجل استعادة آسيا الصغرى، ولكن البابا استغل هذا الطلب لشن حرب ضد المسلمين وتحقيق أهدافه الخاصة[١].

على أي حال، ينبغي في النهاية الإقرار بما أكده سيبل Sybel، وهو أن طلب الكسيوس للمساعدة ضد السلاجقة كان هو «الحافز الحاسم» الذي أدى إلى شن الحرب الصليبية ضد الشرق الإسلامي، وكانت دعوة كليرمونت رد فعل لهذا الاستنجاد[٢].

******

(١) Charanis, Amis of The Medieval Crusades, p. 128؛ Cahen, Introduction, p. 16؛ Vasiliev, Byz. Empire, 2, p. 204؛ Duncalf, J.A. "The Pope's Plan for the Crusade", in: Crusades, Motives and Achievements, (U.S.A. 1966), pp. 22-24.

(٢) Sybel, H., The History and Literature of The Crusades, English Trans. Gordon, L.D., (London 1965), p. 45؛ Munro, Did Alexius I Ask for Aid, p. 731.